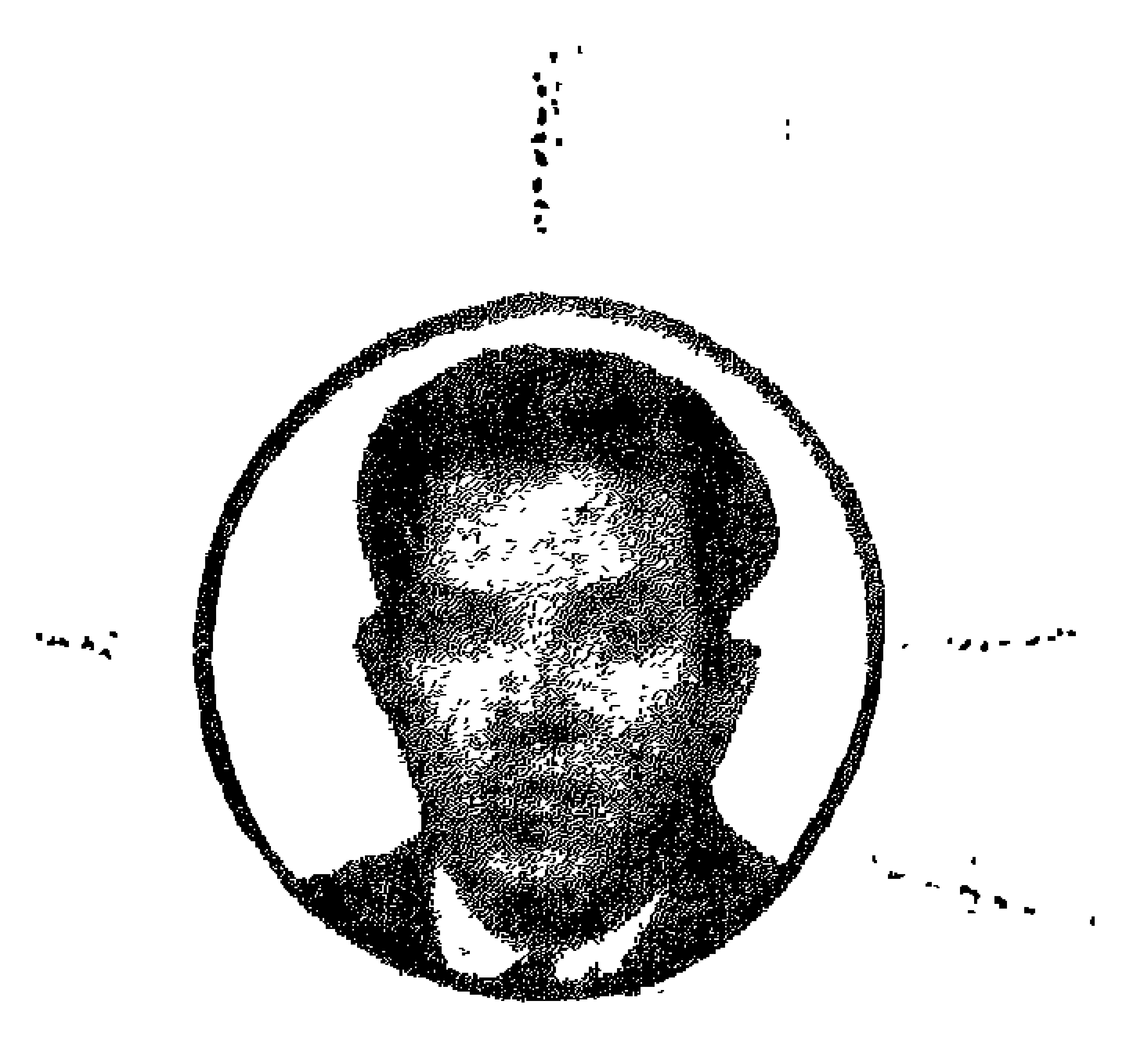


مصطفى محمود

أكل عيش



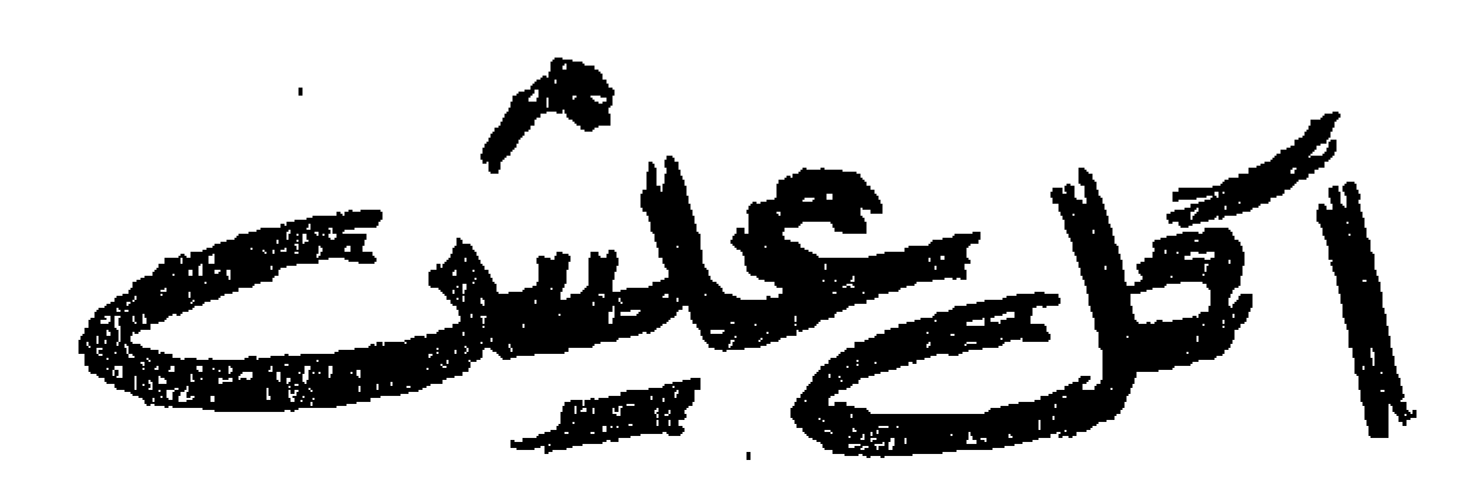


مصطفى محمود ..

● ولد بشبين الكوم عام ١٩٢٧ ..
● درس الطب وتخرج من قصر العيني في عام ١٩٥٢ وتخصص في الصدر ولكنه ضل الطريق ودخل الى القلب ، واستقر هناك يكتب عن عذاب الناس ..
● يحس احساسا عميقا أنه في جيل قلق مبلبل حائر .. في مفترق طرق .. جيل يصنع مثالياته ويذهب هو نفسه ضحية التجربة ، وفي هذا المعترك لا يملك الا أن يكون صادقا .. فيسبح مع التيه .. يحاول مع الناس أن يجد مواطىء لقدميه ..
● لا يلتزم في الكتابة الا الصدق نحو الواقع الحي الذي يعيش فيه ..

إهـــــداء ٢٠٠٧

الدكتور / عبد الغنى أبو العينين
جمهورية مصر العربية



بقلم

مصطفى محمود

الكتاب الذهبي

يصدر عن دار روز اليوسف
العدد الثاني والاربعون
نوفمبر سنة ١٩٥٥

أكل عيش



ف مقهى وحيد على طريق موحل ·· وبين كراسى من القش وصناديق فارغة وعربة من الصفيح الصدىء كان صاحبنا يقف وهو يمسح يديه فى فوطته ويضع الفحم فى الجوز ، ويلف السجائر الرخيصة ·· ويتطلع الى زبائنه من الكمسارية والعمد والأفندية ·· وأسنانه تصطك من البرد ··

كان الناس يسبحون أمامه كالضفادع ·· والمطر يسح من الخيش والخرق القديمة المنصوبة فوق رأسه ·· والفوانيس ترقص ذاهبة آيبة ··

ودس فى خياشيمه بعضا من علبة النشوق التى يحملها ومضى يعطس فى شدة ويبصق ويقلب الشاى فى البراد وينظر الى الموائد ··

كان وسط الحلقـــة رجل يتكلم بصوت عال ويمسح أنفه فى كمه ··

بقه دى مش أمور عيال دى ·· ألم الانفار من هنا ·· ويسربوا من هنا ·· بقه دول ناس باكيين على آكل عيشهم ·· وفيها ايه لما واحد وقع من رابع دور انكسرت رقبته ·· قضاه كده ·· حنشارك ربنا فى حكمه ·· عجايب يارجاله ·· أنا موش فاهم ايه الخلق الطوخ دول ·· هو السليم مش بيموت وهو واقف ·· ولازمتها ايه الجنازة الحارة والميت كلب ·· والا حايبقى خراب من ناحيتين ·· ماتنطق يابجم ··

ـ أنطق أقول ايه يامعلم ·· العبارة كلها ماتستحقش ·· الراجل مات وانتهى ··

ـ ما انتهاش ولا حاجة ·· أدينى قاعد شايل همه ·· مش عارف أجيب منين بداله وأغسله منين وأكفنه منين ·· الله يرحمه ·· اللى كان طول عمره ما استحمى ·· أنا عارف ياأخى ايه اللى قاله يموت النهارده ·· ماكان يموت فى بيتهم والا فى البوظة اللى بيسكر فيها والا تحت عربية ·· اشمعنى يعنى مايحكمشى موته الا فى شغلى ··



ـ عالعموم ·· الحكاية انتهت يامعلم خلاص

ـ انتهت ازاى يا أخى ·· والشغل اللى اتعطل والـ ··

وحدوه ·· وحدو ·· الملك لك وحدك ·· يارب ··

وانقطع الحديث فجأة على هذه الصيحات ودخل المقهى رجل مسن يلبس خرقة مهلهلة ويلف حول وسطه حبلا من خرز ·· وتقدم من الزبائن يتمسح بهم ويتمتم ··

ـ هو الحى الباقى ·· يا أسيادنا ·· لاشىء يبقى فى هذه الدنيا الا وجهه ·· كل شىء الى زوال ·· ولا يشفع للانسان الا عمله الطيب وكل حسنة بعشرة أمثالها ·· يا أسيادنا جامع المتبولى بيبيضوه ·· وده بيت الله فى وشنا جميعا ·· والقرش اللى يندفع فيه مايضيعش ·· وكل واحد واللى يقدر عليه ·· مساهمة لجامع المتبولى يا أخواننا ··

ومضى يلتقط الحسنات ويدسها فى شق جلبابه الواسع حتى صرخ فيه أحد الجالسين فى غلظة ··

ـ يا أخى ·· هو جامع المتبولى بقاله خمس سنين بيتبيض ·· ده لسه السنة اللى فاتت دافع فيه شلن ··

ـ لا ياسيدى فتح الله عليك ·· ده جامع الرفاعى ··

ـ عجايب يا أخى ·· هو انت واخدمقاولات الجوامع كلها ·· والا ايه الحكاية ··

ـ كل شىء بثوابه ياسيدى فتح الله عليك ·· وأنا بتعب لله ببلاش ··

ـ طيب ياسيدى عقبـال مانتعبـــلك فى الافراح وغور بقى الله يحنن عليك ··

ـ يا أسيادنا الـ ··

ـ يا أخى غور بقى من وشى خلى الليلة تعدى على خير ··
وعادت السماء تسح والكلاب تنبح واختفى السنى فى حقول الذرة وعاد الجالسون يثرثرون ·· قال رجل ذو لحية ··

ـ شوف يا أخى الراجل الحرامى عمال بيبيض فى جوامع مالهاش وجود ويضحك علينا وشايل حمل خرز وسبح وأحجبة تقولش جاى من الحجاز ماشى ··

ــ أهو ربنا خالقه زى ماهو خالقك ·· وكلكو بتاكلو عيش ·
ــ ايه الكلام الفارغ ده ·· اياك تكونش ناوى تسرح بالكلمتين دول على القهاوى وتاكل عيش زيه ··
ــ يعنى هو انت مش حرامى برضه ··
ــ ايه ياجدع ·· انت جرى لمخك ايه ؟ ··

ــ يعنى انت مانصبتش على الكمسارى وجيت بأبونيه قديم ·· وبقى لك على دى الحال سنة ·· يعنى حسبة عشره جنيه بالميت ··
ــ ويعنى انت مابعتش كردان مراتك وجبتلها بداله كردان قشرة ··
ــ طب بس بقه ·· فضها واسكت ··

وخيمت برهة من الصمت وعاد القهوجي يقلب الشاى فى البراد ويدس بعضا من علبة النشوق فى أنفه ويعطس ويبصق ويلعن خاش الناس جميعا ، وخاش البرد والمطر والرطوبة والسقف الذى يسح كالغربال ·· وكان الى جواره ثلاثة يلعبون النرد ويتحدثون ··

ــ انت مدريتشى مش أبو حسين مات ··
ــ دش ··
ــ وابنه الكبير ضرب أخوه بالرصاص عشان ياخد الأرض ·
ــ شيش بيش ··
ــ دى الحادثة طنطنت بيها الجرايد كلها ··
ــ ياسلام ·· على البيش بالضبط ··

ــ والله يا أخى انت ما انت دارى ·· ولو الأرض فنت باللى عليها ماحاتقيم راسك من اللعب أبدا ·· تصور ان زلزال تركيا مات فيه نص مليون ، وسيول الهند غرقت بلاد بحالها ·· ومراكش قايده نار ·· وانت ·· ولا انت هنا ·· بقى انت بنى آدم ·· بقه حالك مش العن من حال المساطيل ·· ياأخى فوق بقه فوق ··
ــ أسكت يا أخى ده خدله عشرة صايمة ·· ياسلام يارجاله

.. شوفوا القواشيط .. ولا عجل السكةالحديد .. ولا البيانو .. ياسلام ..

ـ بقولك لو سمعت ان بيتك اتهد .. وأولادك ماتو دلوقت ماتتحركش .. يا أخى بطل مخدرات .. امسك فى خناقى أحسن ماتمسك قشاط .. اكسب قرش أحسن لك من العشرة الصايمة اللى بتصوم عيالك من تحت راسها .. بطل سطل .

ـ يا أخى بطل انت دوشة .. وقوم كل .. قوم افطر .. وانت عامل زى الأموات .. مافيكش الا لسان يهبهب .. الحمد لله أهى العربية وصلت عشان تغور من وشنا ..

ووقفت عربة كافورى أمام المقهى .. وتغيرت وجوه الزبائن وبدأ القهوجى يدور بالطلبات ويفرغ الشاى والقهوة ويرص الجوز .. ويعطس ويبصق ويلعن الناس .. ووضع أكبر صينية أمام حلقة من الفلاحين ذوى الشوارب الغليظة .. وكان يتوسط الحلقة عمدة سمين كالشوال يضع يديه الاثنتين على كرشه ويتكلم وهو يتثاءب ويدلك مفاصله ..

ـ الدوده اليومين دول واخده كيفها أوى .. وعماله تحش فى الزرع زى المنشار ..

ـ ربنا يفرجها .. الفاتحة ياجماعة ان ربنا يفرجها ويعدل الحال ..

ومضى يقرأ الفاتحة وحده .. والبقية يتمتمون .. والعمدة مغمض العينين كالنعسان .. ثم استيقظ العمدة فجأة وقال وهو يهرش ..

ـ ياخويا الحلوانى طالب فى بنته ألف جنيه مهر .. والبت بيضة وملظلظة وتستاهل .. يا سلام ..

ـ وراقده على ميت فدان طين من اللى على كيفك ..

ـ أيوه طين من اللى على كيفك ..

ـ وأبوها بيطالع فى الروح وديته عيار من أبو تلاته مليم .

ـ ولا عيار ولا حاجة ده ميت جاهز ..

ـ مش خسارة فيه العيار والله ده ابن حرام وكل فلوسه ربا وسرقة وخطيفة ..

ـ أسكت أحسن نسيبه قاعـــد معانا ‥ يقوم يطبق فى زورك ‥

ـ أنا ‥ أطبق فى زوره ليه ‥ أنا أطول ألاقى العيار اللى يحش عمره ‥ دى تبقى ليلة القدر ‥ ده أنا بادعي عليه النهارده قبل بكرة ‥

ـ آدى يمين بالله ياعويس ان ماكنت انت اللي تربصت له فى الزراعية الجمعة اللى فاتت وهفيته الرصاصة اللى خابت وجت فى السواق ‥

ـ أنا ‥ وانت تعرف ان رصاصتى تخيب برضه دنا عينى مزان ياواد ‥ وايدى مزان ‥

ـ والله مابخاف الا من عينك الميزان وايدك الميزان ‥ وآدى يمين تانى بالله ان ايدك دى هى اللى كفنت نص البلد دى ياعويس يابن الجرجاوى ‥

ـ مالك الليلة دى نازل ايمانات بالله ياواد ياعوضين ‥ اياك تكونش ايدك بتاكلك على راسي عاوز تحشها وترتاح ‥

ـ والله مايريحنى الا حش راسك ‥

ـ ومستنى ايه قوم حشها وارتاح ‥

ـ عاوز أقتلك يابن الجرجاوى وبعدين أتوضا ‥

وضحكت حلقة الفلاحين فى صخب ‥ وارتسمت الشراسة على أكثر من وجه واحد ‥ وكأن ماقيل لم يكن كله هذرا ‥ ثم اختفت الوجوه فى أقداح الشاى ‥

وعاد القهوجى يحملق فى اثنين قد اعتزلا ركنا بعيدا ولم يطلبا شيئا ‥ كان أحد الاثنين قادما من دمياط ويبـدو من حديثه انه واسع الغنى فهو يمتلك عمارتين وشركة وعدة فدادين ‥ وكان كل من الاثنين ينتظر من الآخر أن يدعو القهوجى ويطلب شيئا ‥

وأخيرا قال الدمياطى وهو يختلس سيجارة من علبة صديقه

ـ تشرب الميه مثلجة والا من الحنفية ‥

ـ اختشى بقه يادمياطى واطلب لى حاجة لله ‥ ولو كبـاية ينسون ‥

ـ بس كده ·· يعنى جيت فى جمل ·· اتنين ينسون مضبوط ياجدع ··

ومد يده فاختلس سيجارة أخرى ومضى يدخن ·· ولم يفق الا على قرقعة براد الينسون وهو يوضع على المائدة ·· فحملق فيه بفزع ··

ـ ايه ده كله ·· أنا عاوز اتنين ينسون ياسيدنا ·· مش جمدانة ينسون ·· دى جمدانة توزع على أورطة ·· لا ·· لا رجع ·· وهات براد صغير وكبايات فرنساوى ·· وايه لازمة اللبن ·· ده مالوش لازمة ·· ده يعمل اسهال صيفى ··

ـ ياسيدى اسهال صيفى ايه ·· ده احنا فى عز الشتا والمطر بيقطر من عضامنا ··

ـ صدقنى الاسهال الصيفى بييجى فى الشتا برده ·· وأنا قلبى عليك ··

ـ ياسيدى أنا قابل الاسهال الصيفى من وشك بس ·· سيبنى ·· اعتقنى ·· سيبنى أتهنى على الطلب اليتيم اللى جبتولى فى ساعة تجلى ·· أعوذ بالله ··

ولم ينتظر ، بل أفرغ البراد ·· وبدأ يشرب بيديه الاثنتين فى لهفة ··

ومر وقت وبدأ الزبائن يتفرقون ·· ووقف القهوجى ينظر الى السماء الملبدة والمطر والأوحال والدمياطى الذى جلس وحده يرشف الينسون قطرة قطرة ··

وانتهى الكوب عن آخره وتمطى الزبون وتحسس جيبه عدة مرات ، ثم انتزع الحافظة وأخرج مبلغا ودسه فى يد القهوجى .

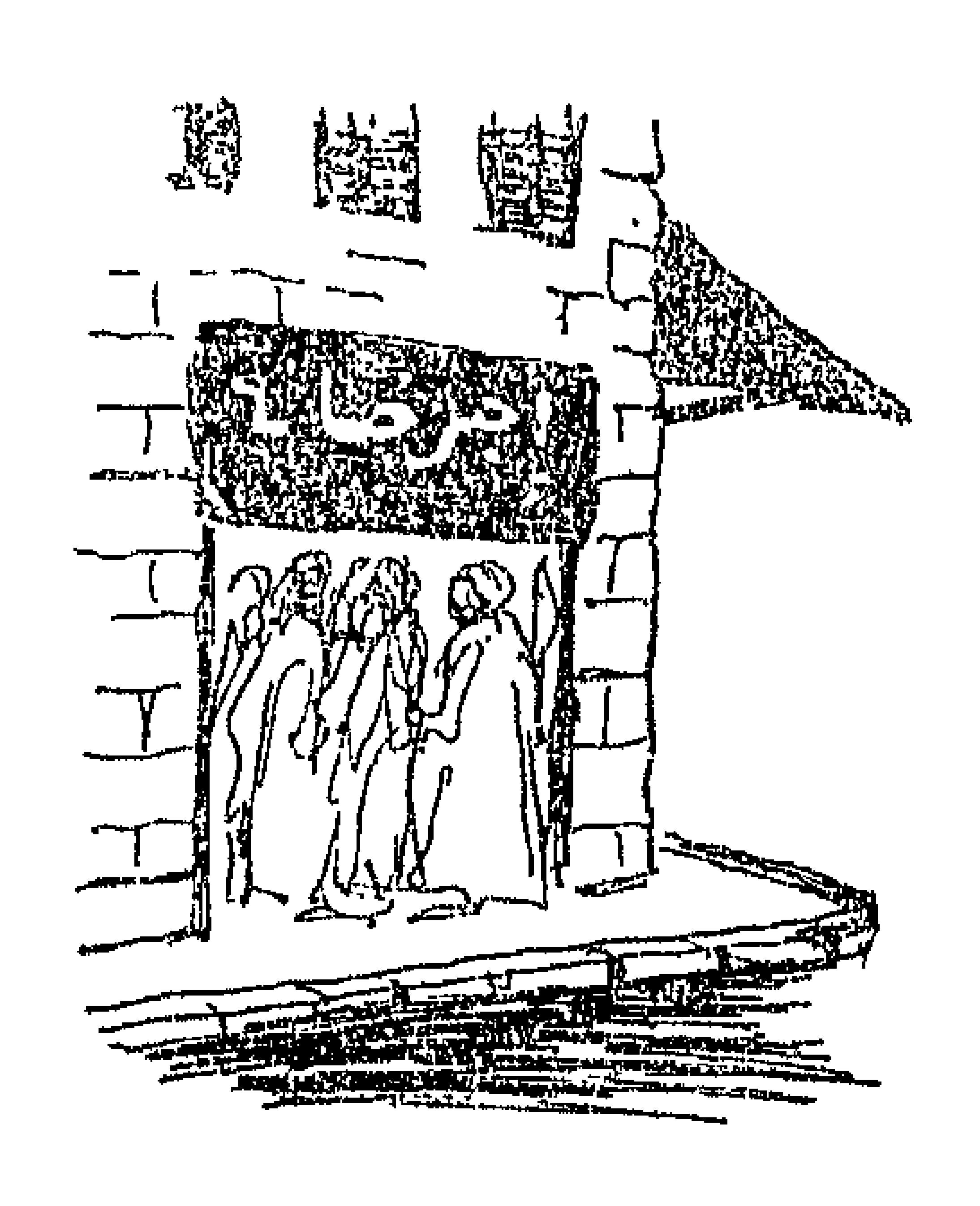
ونظر القهوجى فى المبلغ وكز على أسنانه ولكنه سكت ولم يتكلم ··

***

وحينما خلا المقهى من رواده ·· وتقدم الليل ·· كان القهوجى قد جلس يدخن ··

وتحسس جيبه المنتفخ وأخرج حافظة الدمياطى التى نشلها ·· وعد منها عشر ورقات كل منها بخمسة جنيهات ·· وابتسم ابتسامة عريضة ·· ثم ضحك فى شراسة .


انطون



لن تجد انطون هذا في كباريه أو سينما أو مقهى أو مطعم أو أى مكان من الأمكنة التى يرتادها الناس في أوقات فراغهم فهو لايعترف بالفراغ بل يعتقد أن كل شيء ماعدا العمل خطيئة .. السينما خطيئة والجلوس على المقهى خطيئة وقراءة الكتب خطيئة والأكل خطيئة وكل شيء ماعدا تحضير العقاقير ومزج الأدوية وصرف الروشتات وقبض النقود فى صيدليته العتيقة خطيئة .. وليس أمامك اذا أردت أن ترى أنطون هذا الا أن تذهب الى بولاق .. الى تلك الصيدلية التى تقوم على رأس أحد الشوارع وتبدو كمحطة ترام من كثرة الواقفين ببابها وتزيح من طريقك عشرات الهياكل الآدمية عن يمين وعن شمال حتى تبلغ الشباك الخشبى الأبيض الذى يطل على الميزان وأوراق الترشيح والاقماع والمخابير وتتلفت حولك .. وحينئذ سترى شبحا هزيلا يظهر ويختفي ويقفز ويهرول وينطلق فى عرض الصيدلية وطولها ويقوم بعشرات العمليات فى وقت واحد .. هو أنطون .. فهو فى المعمل وفى شباك الأدوية وأمام الخزينة وأمام روشتته وفى مساومة حادة يلوح بيديه ورأسه ويؤكد ويحلف أنه خاسر وانه لولا الصداقة المتينة التى تربطه بهذا الزبون أو ذاك لما قبل هذا الثمن ولا رضى هذا الغبن وماتكاد تفتح فمك لتناديه حتى يكون قد استدار كفأر مذعوروفتح باب المعمل واختفى فى الداخل وتزيح رجلا كسيحا من جانبك وتعتذر وتربت بيدك على ظهر امرأة حامل وتستأذن من رجل معصوب العين وتتقدم خطوة لتبحث عن أنطون فتطأ قدمك ذيل قطة وتنبعث صرخة ألم مدوية تنتفض لها ويخرج أنطون كالريح من باب المعمل وفى يده زجاجة حمراء يرجها ويسأل فى نغمة لاتخلو من الرطانة الشامية . ايه جرى ؟ ويحملق فيك بعينيه اللتين تختلجان بين ثانية وأخرى فى سرعة عجيبة .. وتمضى أنت تتأمل خلقته .. رجل نحيل .. نحيل جـــدا .. أحمر الوجه غائر الوجنتين حاد الأنف أصلع ذو أهداب مصفرة تختلج



دائما وعنق رفيع معروق يطل من معطفه الأبيض كعود ثقاب ٠ اذا تحدث أسرع فى حديثه فتآكلت فى فمه مخارج الحروف ونهاياتها وبدا حديثه غريبا واذا سار هرول فى سيره واهتز معطفه الأبيض الفضفاض على ساقيه النحيلتين فبدا « كعفريت المآته » الذى تعبث به الريح فى حقول القمح والذرة واذا مد يده اليك فاحت من أصابعه رائحة الكحول والدكتول واليزول صورة قبيحة منفرة لاتطيق أن تنظر اليها مرتين ٠

وقد بلغ أنطون سنه الخمسين وقضى من هذا العمر الطويل نصفه بين العقاقير والروشتات والنصف الآخر فى الشام فى حلب حيث كان يدرس الصيدلة فى احدى المدارس الأجنبية التى لايدرى أحد أين هى الآن ولا أين ذهبت ٠٠ وقد حاز على على درجته العلمية منها بعد ثلاث سنوات ثم غادرها وفى يده شهادة « مزعومة » يشك فى قيمتها كل شعب متحضر الا الشعب المصرى الكريم فجاء الى مصر ٠٠ واختار بنظره البعيد وعقليته التجارية بولاق مكانا لصيدليته وأسماها « بصيدلية أنطون »

وكان أنطون رفيقا بزبائنه فخفض أسعاره كلها عن أسعار زملائه وكان رفيقا بنفسه فغش فى المقادير وخلط الماء بالكحول ووضع زيت النعناع بدلا من زيت الكافور وأضاف الى قوائم الأقرباذين أسماء جديدة كقطرة أنطون وحبوب أنطون وشربة أنطون وبرشام أنطون واخترع لكل مرض دواء غزا به السوق وغزا به عقلية الناس ٠٠ وكانت أدويته تروج وتنتشر وتتداولها الألسن وتحكى عنها الأعاجيب ، وما زال فى بولاق الى الآن من يثنى على شربة أنطون الفواره وفعلها فى الامساك المزمن والصداع وما زال هناك من يثنى على مزيج أنطون العجيب الذى يشفى عشرين داء من البدن ٠٠

وأضاف أنطون الى عطفه على الفقراء والمعوزين عطفه على المساكين من مدمنى المخدرات من العمد والأعيان وأصحاب الالقاب فسهل لهم بالتواطؤ من طبيب محسن طيب القلب مثله الحصول على روشتات المورفين والكوكايين لقاء القليل مما تجود به نفوسهم من المال ٠٠

وهكذا أصبح الصيدلى فى بضع سنين رسولا يذكر له أياديه البيضاء الألوف من المعذبين ..

وقامت الحرب .. فقام معها رصيد أنطون أو على الأصح انتفض قائما على قدميه فبلغ دخله الشهرى خمسمائة جنيه وزاده المال بخلا على بخل وأغرته خمسمائة بالطمع فى ألف والألف بالطمع فى الفين فبالغ فى التقتير على نفسه واقتصد فى أكله ولبسه وزاد عمله فألغى الأجازات وفتح صيدليته فى كل ساعات الليل والنهار وحمل عبئها وحده فهو الصراف وهو المحضر وهو الكاتب .. هو كل شىء .. ولاحظ الجزار الذى يفتح محله الى جانبه انه قد انقطع عن شراء اللحم ولاحظ بائع الصحف أنه انقطع عن شراء الصحف ولاحظ الجيران أنه أصبح يفضل المشى ويتحدث عن فضائل الرياضة .. وكان يقول لمن يحدثه فى مسألة اللحوم ان الحياة النباتية هى الحياة المثلى للانسان وانه هو نفسه قد جرب المذهب النباتى وانقطع عن أكل اللحوم فأحس بتحسن هائل فى صحته واختفى الشحم والدهن اللذان كانا يجثمان على صدره .. أما زوجته فكانت لاتخفى سخطها على هذا المذهب النباتى الذى قضى عليها بالهزال والجوع الدائم ولا تتورع عن التهام أكبر كمية من اللحم اذا دعيت الى وليمة ..

ولم يكن أنطون يفكر فى شىء عدا صيدليته ودفتر حساباته فهو لايذهب الى سينما ولا يجلس دقيقة على مقهى ولايعطى مليما لشحاذ ولايقرض نقودا الا بالربا الفاحش .

ولكن كل هذا لم يعد عليه بالربح الذى كان يتوخاه فشرع يزيد فى أسعاره ويغالى فيها ..

وجمع أنطون الى جانب مهنة الصيدلة مهنة الطب فمارس الكشف على المرضى من جيرانه وزبائنه ووصف لهم الدواء الذى يجهزه طبعا من صيدليته بضعف السعر فاشتهر بلقب « الدكتور » وأصبح قبلة المرضى .. وكان يعاونه فى كل هذه المهام الشاقة أربعة صبيان يأخذ أكبرهم محمد عشرة قروش فى اليوم يدفع فى مقابلها دمه فهو يمسح الصيدلية ويكنسها

وينظف الدواليب ويروح ويجيء فى المعمـــل عشر مرات فى الدقيقة ليحضر المخابير والزجاجات وورق الترشيح ٠٠ ولا تخلو يده لحظة من زجاجة يرجها أو هاون يدق فيه مادة صلبة أو كأس يمزج فيه سوائل حمراء وخضراء فاذا ذهب أنطون لينام فى بيته فان عليه هو أن ينام فى داخل معمل الصيدلية التى تترك طول الليل نصف مغلقة لتتصيد الزبائن ٠٠ ولكنه لم يكن ينام فما تكاد تمر ساعة حتى يدخل الى الصيدلية زبون يطلب دواء أو اسعافا فيهرول محمد اليه ليوقظه ثم تتحرك الصـــيدلية كلها من جديد وتمر ساعة ثم يعود أنطون الى بيته ويعود محمد الى افتراش الحصير الخشن فى المعمل حيث ينـــام ليله مؤرقا يستنشق هواء المعمل المحمل بروائح الفنيك واليزول والديتول والكلوروفورم والكافور وسائر المهيجات الصدرية ٠

وهو لهذا يسعل دائما ويبصق بلغما قاتما ويشكو التعب ويعمل مع محمد أخوه صبحى ، وهو أصغر منه سنا شاحب الوجه جميل التقاطيع ٠٠ وهو يتقاضى خمسة قروش فى اليوم ويعمل من الصباح الى المساء فقط ٠٠ ثم يعود لينام مع أمه فى فناء ربع قديم مهدم ، وقد ألحت الأم على أنطون فى زيادة أجر ولديها لأن أحوال المعيشة أصبحت عسيرة والغلاء أصبح لايحتمل ، ولكنه كان يصم أذنيه عن توسلاتها أو ينفجر قائلا ان محمــد وهو يأخذ أجر موظف فى الحكومة كسول ولا يعمل شيئا ويقضى أغلب يومه فى التثاؤب والسعال والتمارض وانه لايستطيع أن يعول الكسالى والمرضى وذوى العاهات وان صيدليته مكان عمل وليست ملجأ وانه سيطرد ابنها فى يوم من الأيام ان لم يصلح من أخلاقه ٠٠ يقول هذا ثم يعبس ويلوى شـــفتيه ويختطف الروشتات التى تمتد بها أيدى المرضى المتزاحمين على شـــباكه ويمضى يحملق فيها ويجمع ويطرح ويساوم ويحتد ويترك الأم تبكى وحدها ٠٠

وقد مرت شهور بعد ذلك ثم اختفى محمد ٠٠ وعلم أنطون أنه مات ٠٠ ففرك يديه ٠٠ وأضاف الى الدخل ثلاثة جنيهات وارتعشت أهدابه المصفرة وبدا عليه تفاؤل عريض ٠٠

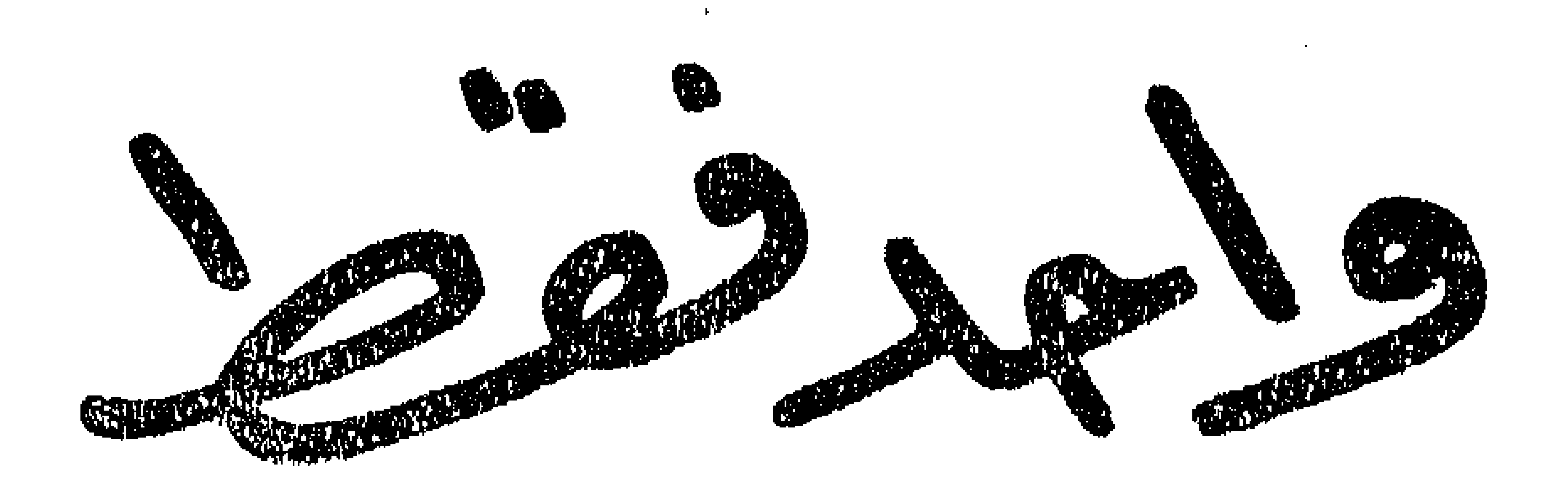
وزاد العمل على كواهل العمال وكثر تذمرهم ٠٠ ولكن أنطون لم يكن يفهم لهذا التذمر معنى فماذا يطلب الانسان أكثر من أن يعمل فى صيدليته ٠٠ وهل فى الدنيا شىء غير الصيدلية ٠٠ ان حياته كلها لاتتعدى هذه المخابير والاقماع ٠٠

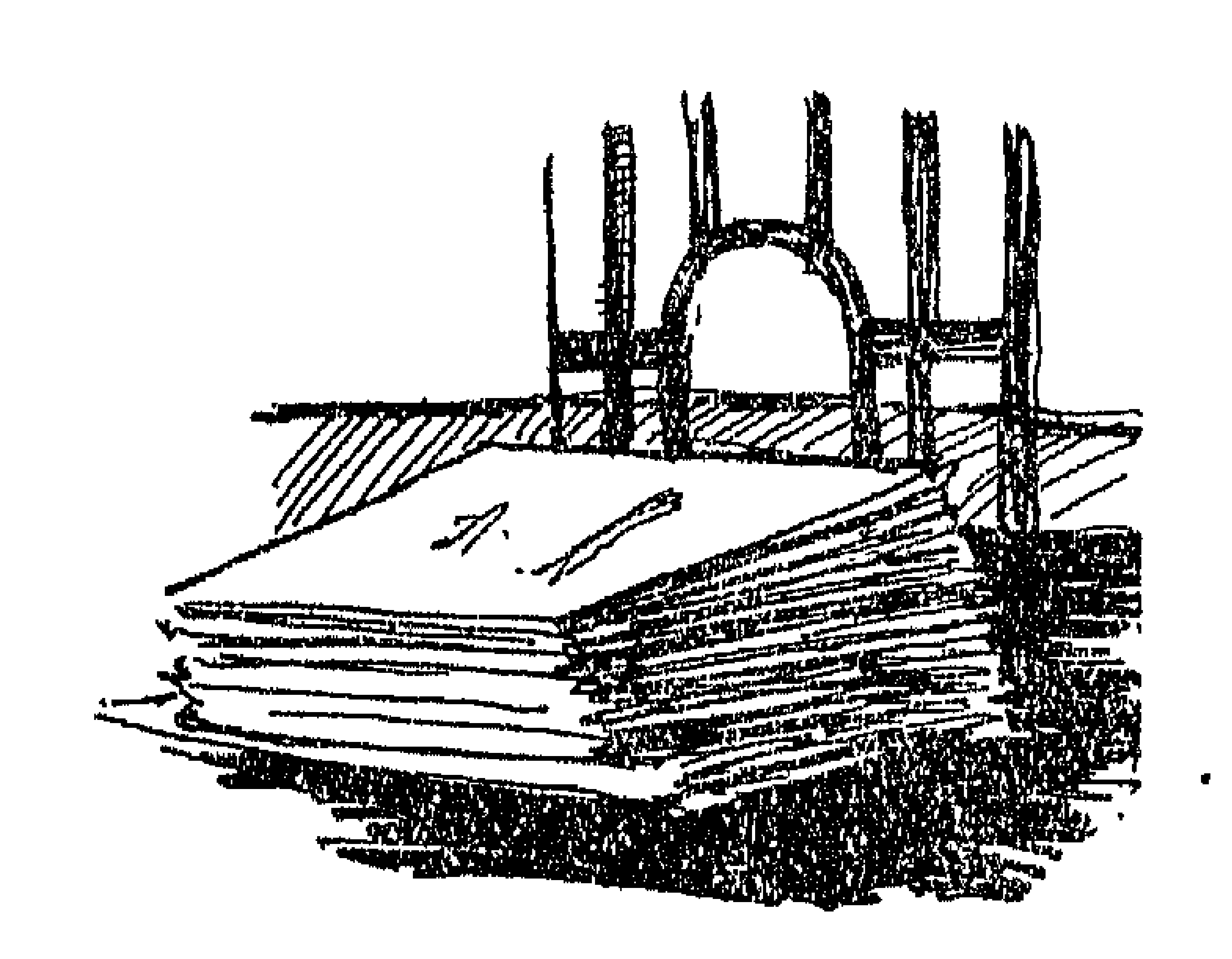
« عشر ساعات » هكذا كان يهمس الى نفسه وهو جالس الى فراشه « عشر ساعات » وينظر الى زوجته الصفراء ٠٠ عشر ساعات كثيرة على عامل طويل عريض ٠٠ انى أنا الكهل الأشيب أعمل خمسة عشر ساعة فى اليوم وأنام فأحلم انى أعمل ٠٠ حتى فى أحلامى أعمل ٠٠ وهذا العامل الذى ينهب نصف دخل الصيدلية ويسرق الاسبرين ويخفى «الشرب» فى جيبه يستكثر أن يعمل عشر ساعات ويهرب لينام فى حضن أمه ٠٠ هذه بلد أموات ٠٠ بلد كسالى ٠٠

وينظر الى زوجته التى تكون قد نامت خلال ثورته ويشيح بيديه يائسا ٠٠

وقد ظل رصيد أنطون يرتفع ٠٠ وجسم أنطون يتضاءل ويهزل ٠٠ حتى صحا الجيران فى أحد الأيام فوجدوا الصيدلية مغلقة ٠٠

ويقول الجيران ان الرجل قد مات ٠٠ مات من تلقاء نفسه ٠٠ ظل يهزل حتى تلاشى ولم يبق منه الا رائحة الفنيك واليزول التى كانت تسرى فى دمه وبضعة أكداس من الأوراق المالية التى كانت تكون روحه ٠٠ ويهز أهل بولاق رؤوسهم الآن كلما جاء ذكر رجل بخيل ويتبادلون نظرات حزينة ٠٠ ويغمضون ٠٠ مسكين ٠٠ وماذا فعل أنطون بماله ؟! ٠٠


واحد فقط



طابور طويل ·· ناس ليس لهم عدد ·· جو خانق وغبار يتصاعد من النعال البالية وعرق وطرابيش ولحى وجلاليب ·· ولاسات ، وعمائم وكل شيء يتراءى أمام حجرة كبيرة لموظف صغير لا يفتأ يعوى صارخا وهو يدفع هذا السيل من البشر ·· واحد فقط ·· واحـد فقـط ·· أنا لست دابة ·· أنا لست بهيمة فى ساقية الحكومة ·· أنا لست حاويا أستطيع أن أخرج من تحت طربوشى ألف اعانة كل يوم لألف شحاذ تزدحم بهم قارعة الطريق ، ثم أنا أيضا شحاذ مثلكم لى دوسيه من الابتهالات يرفع كل يوم الى أعتاب الخزينة يطلب الرحمة من الله ومنكم ومن كل شيء ·· واحد فقط يا أسيادى ·· واحد فقط ··

لقد مرت على برسوم أفندى ست ساعات مسح فيها عن جبينه ست جالونات من العرق ولعن نفسه ألف مرة ولعن الدنيا عدة آلاف أخرى ·· وهو الآن يختزن ألوفا أخرى من اللعنات يصبها على زوجته وأولاده ويتوسل الى صبره أن يمنحه مزيدا من كنزه الثمين ليستعين على الدقائق الباقية فى عمله اليومى ··

انه قطعا ليس الملوم على أن هناك أصحاب عاهات ومرضى ومعتوهين ومع ذلك فهو يدفع ثمن هذه الشرور كلها وحده من عرقه وحنجرته كل يوم دون أن يتقاضى على هذا الا الشكر الذى لا يساوى شيئا فى سوق العملة وسوق الحياة ··

« الشكر » ·· ويهز رأسه وينظر الى ساعته التى تشبه لضخامتها « سنة » لا ساعة واحدة ·· ويغلق الملف الكبير ويغلق جاكتته القديمة التى تتألف من مصراعين تماما كمصراعى الباب ، ثم يغلق فمه خوفا من السباب ·· ويشق طريقه بين أمواج الناس ·· ويخرج الى عرض الطريق ··

ويجذب نفسا عميقا كأنما يريد أن يلتهم الهواء كله فى جوفه ثم يجذب نفسا آخر ·· والذى يراه فى تلك اللحظة يخيل

اليه انه مقدم على عمل خطير ٠٠ أقل مافيه أن يغير وجه الأرض ٠٠ وهو يحس فى نفسه عين الاحساس ٠٠ فأقل مايرضيه في تلك اللحظة ٠٠ أن يحدث حدث كونى ٠٠ فتشرق الشمس من الغرب أو تقوم القيامة ٠٠ أو أى شيء الا أن يعقب هذا اليوم يوم آخر مثله ويلتقى فى الغـــد بنفس القطعان التى لقيهـــا اليوم ٠٠

ان الانسان بحريته وحدها يفترق عن الدواب ٠٠ حريته وحياته المتجددة ٠٠ أما هو فلا شيء فيه يتجـدد ٠٠ لا عمله ولا مرتبه ولا شكله ولا أى شيء فيه حتى الخرقة التي يضعها على بدنه ويسميها أمام الناس بذلة ٠٠ اللهم الا بقع الحبر التى تتخذ كل يوم شكلا جـديدا على سرواله والخروق التى تفتح لها فروعا جديدة على ركبتيه كلما سولت له نفسه أن يضـــع ساقا على ساق كما يصنع علية القوم ٠٠ ومع ذلك فالنـــاس يقولون عنه انه محظوظ ٠٠

مرض بالتيفود وظل في الفراش ســنة حتى اذا بدأ يرفع رأسه ويجلس بين الوسائد ويتوكأ على عصا ليحبو كالطفل شد الطبيب على يده قائلا والحماس يطفح من عينيه انك رجل محظوظ ٠٠ لقد تمت على يديك معجزة ٠٠ ان الميكروبات التى كانت تسكن دمك كانت تكفى لقتل مائة رجل ٠٠

وسقط من الترام فمزقت العجلات حذاءه وهتكت قدميـــه فسارع اليه جيرانه في المستشفى يقبلون أيديهم ظهرا لبطن ويغمغمون ٠٠ انك محظوظ ٠٠ لقد نجوت بمعجزة فى الوقت الذى كاد الترام يفصل رأسك ٠٠

وفقد ثلاثة من أولاده فى موسم الكوليرا ٠٠ فأقبل عليـــه المعزون يجلجلون بمسابحهم الصفراء الغليظة ويغمغمون ٠٠ الحمد لله يابرسوم أفندى ٠٠ لقد نجا بقية أولادك من العدوى بمعجزة وهذا من حسن حظك ٠٠

وتهدم منزله والتهم أثاثه التراب فهلل أصحابه وكبروا وقالوا هذا هو الحظ ٠٠ لقد كنت فى الخارج يابرسوم أفندى وأى واحد يمنح عمرين مثلك ٠٠



ولو ألقى به فى غياهب السجن لصفق أصحابه اعجاباوقالوا هذا هو الحظ فقد كان بينكوبين الشنق قيد شعرة ·· ولوفقد احدى ساقيه لهنأه أصحابه على الساق الباقية ، ولو فقدعينيه لوجد من يحسد عينه الأخرى ·· وهذا هو الحظ ·· الحظ ·· أريد واحدا ·· واحدا فقط يدلنى على الحظ الذى اختصنى به الله دون سائر خلائقه ·· أريد واحدا فقط يحمل عنى هـذا الكنز من الحظ الذى لاينضب ·· يهمس برسوم أفندى بهذا وهو ينفخ منخريه ويزفر الهواء من صدره الذى يزمجر ككور الحداد ·· ومرة أخرى ·· يبدو لمن ينظر اليه أنه مقدم عـلى شىء خطير ·· ليس أقل من تغيير وجه الأرض أو سلب الضياء من عين الشمس أو القضاء على الكون ولكنه لايفعل شيئا من هذا وانما يميل على الزقاق الضيق الذى يقطن فى أحد أكواخه ·· ويقف الى جوار عجوز قد تقوست على سلة تبيع فيها الليمون والكرات ·· ويمضى يساومها وهو يقلب الحزم فى يديه ويزنها ويزن ماتحويه محفظته من قروش ·· ولا يلبث أن ينثنى ضاربا فى ظلام الزقاق وقد ملأ يديه من هذه الحزم التى تنبت بلا ثمن على شطآن الترع والمستنقعات ·· ويقف على الباب المنخفض يدقه بغلظة وقد غدا أشبه بالدابة من أى وقت مضى ··

وتفتح الباب امرأة طويلة فيستقبلها بالسباب ويمضى خلفها وقد راحت تصعد السلم الخشبى مترنحة وقد تدلت ذراعاها الى جوار ثوبها الاسود فبدت كمظلة مغلقة ·· ويمضى يسب وهو يتمنى لو ردت عليه مرة واحدة فيتغير شىء فى البرنامج السقيم الذى يدور كل يوم فى ذات اللحظة وذات المكان ·· ولكن شيئا من هذا لايحدث وانما تمضى المرأة الطويلة فى صمت لتعد الطعام ·· بينما يتشابك الأولاد كل منهم فى ذيل الآخر ويتصايحون ويستخفون كالأرانب فى الصناديق التى تعيش فيها العناكب عند بئر السلم ··

ويذهب برسوم ليجلس فى ركن ·· نفس الركن الذى يجلس فيه كل يوم ونفس الكرسى الذى فقد قعره واحدى رجليه ·· ونفس النافذة التى يشرف منها على العجوز المقوسة ، كالجميزة

العتيقة على سلة الليمون ٠٠ والناس ذوى اللحى والعمائم ذوات العذبات ٠٠ واللاسات ٠٠ والنعال ٠٠ والغبار ٠٠ والضجة ٠٠ وقبة سيدى البهى ٠٠ والطائفة الشـــاذلية ٠٠ والحلاق ذى المرآة المكسورة ٠٠ والرءوس المصطفة على قارعة الطريق يأكلها القراع ٠٠ وبائع المحشى والذباب والشرطى الذى ينعس تحت مصباح الزقاق ٠٠ وقد نام عندقدميه كلب كبير أجرب ٠٠ لاشىء يتغير ٠٠ حتى الأحاديث التى تنطق بهاهذه الدواب ٠٠ حتى الحركات التى تقوم بها ٠٠

وينفخ برسوم منخريه ويزفر من صدره الذى يشبه كور الحداد زمجرة أخرى ٠٠ ويتكوم فى كرسيه ويضع رأسه بين كفيه ويغمض عينيه وكل منافذ احساسه ليخلق لنفســه عالما آخر ولــكن الظلام الذى ينــطوى فى داخله مايلبث أن يضىء ككرنفال المساخر فينتفض ذلك العالم البغيض حيا ٠٠ بكل مافيه ٠٠ الناس ذوو اللحى والعمائم واللاسات والنعال والغبار والمكتب العتيق والملفات وطابور الناس ٠٠ والحنجرة وهى تصرخ ٠٠ واحد ٠٠ واحد فقط ٠٠ وتبدو له حنجرته كشخص هزيل ضامر أصفر يصيح وينحنى فى توسل ومذلة ٠٠ واحد فقط ٠٠ واحد فقط ٠٠

ليس هناك مهرب ٠٠ وكيف يهرب الانسان من نفسه والى أين ؟ ٠ ان الموت نفسه لايستطيع أن يفعل ذلك ٠٠

اذن فليفتح برسوم عينيه وليحملق فى هذه اللوحة السقيمة التى كتب عليه أن يحملق فيها كل يوم ٠٠ ولينظر هذه المرة الى السماء عل فيها شهابا ساقطا قد اختار لمقره هذا الكرسى الذى يضع عليه جثته أوهذا الكوخ الذى لايحتوى عدا الآدميين الا بعض الحصر والفئران والعناكب ٠٠

لينظر الى السماء حيث تلتقى نظرته مع آلوف المتصــوفين الذين ينامون بلا طعام على ضفاف الأنهر يرتلون المزامير فقد يجد هذا الشىء الذى وجدوه فى هذا السواد الحالك ٠٠ الأمل الأمل ٠٠ ستون عاما وهو يبحث عن الأمل ٠٠ وسيموت وهو يبحث عن الأمل ٠٠ وسيموت أولاده وهم يبحثون عن

الأمل .. الناس تولدكالدود ، ثم تموت .. ثم لاشيء ماذا جنى خلال عمر كامل .. من الكدح .. الحسرات ..

ليتظر برسوم الى الأرض اذن فانه لم يجد فى السماء ماكان ينشده .. ليبحث عن الأمل فى الأرض ..

ولكن بندول الملل يدق من جديد فتناديه زوجته للعشاء .. ويصطف أولاده حول الخبز كالجراد ويزحف هو تجره أحشاؤه الى حيث يقعى كالكلب الكبير يلتهم الطعام فى صمت وكل شيء من حوله يدور ويدور لايكاد يرى من الغرفة الا عينى القط الأغبر وهما تتألقان فى سعار أخضر مخيف ..

ولا يدرى متى انتهى من طعامه ولا متى بارح الغرفة وغسل يديه ثم عاد الى الكرسى الكسيح فكل هذه الحركات قد تمت فى آلية عجماء ..

وهاهو يعود .. من جديد الى مكانه يحملق فى النافذة .. وفى مرآة الحلاق المكسورة وفى الناس .. وتعود حلقات فكرة فتترابط ويتذكر أباه الخباز والأفران .. وأمه القابلة .. التى كانت ترتزق من اجهاض النسوة الساقطات ويستشعرالسرور وهو يستعيد هذه الصورة البعيدة .. هذه المرأة السمينة الملتفة بالملاءة وهى تلج الأبواب الواطئة ثم تخرج ، وقد خرجت فى أثرها أرواح هذه المخلوقات التى كانت تغمرها الحياة ..

ان ذكر القتل يريح أعصابه .. القتل الهادىء البارد الذى لاتسيل فيه قطرة دم .. والشر من فرط سخطه يبدو له عين الخير .. وغاية غاياته فى تلك اللحظة أن يقرأ كتابا عنالزلازل أو البراكين أو يقرأ أرقام القتلى فىحروب البشرية كلها أوأرقام ضحايا الطاعون ..

وينظر الى الزقاق حيث راح أطفاله يتسابقون كالثعالب وقد ركب كل منهم على كتف أخيه .

أين ذهبت هذه الصور القديمة العزيزة حينما كان مثلهم يلهو بذهن أملس مسطح لايعرف الخير ولا الشر ولا الحاضر ولا الماضى .. حينما كان كعقرب الساعة لاتقيده الا لحظته .. أين ذهبت هذه الضحكات التى ترن كالاجراس فى قلب خلى

.. أم أنها كانت أكذوبة .. واحدة من خلية الأكاذيب التى لاتنتهى ..

لو أن هـذه الحيـاة التى تهرول كقطار مجنـون تقف لحظة حتى يستطيع أن يتأمل صورة واحدة من صورهاويسبر غورها لاستراح .. ولكن القطار يهرول دائما .. تسوقه رغبة عمياء لاتعرف التوقف والنتيجة اننا نطلب الحياة والحياة تقتلنا

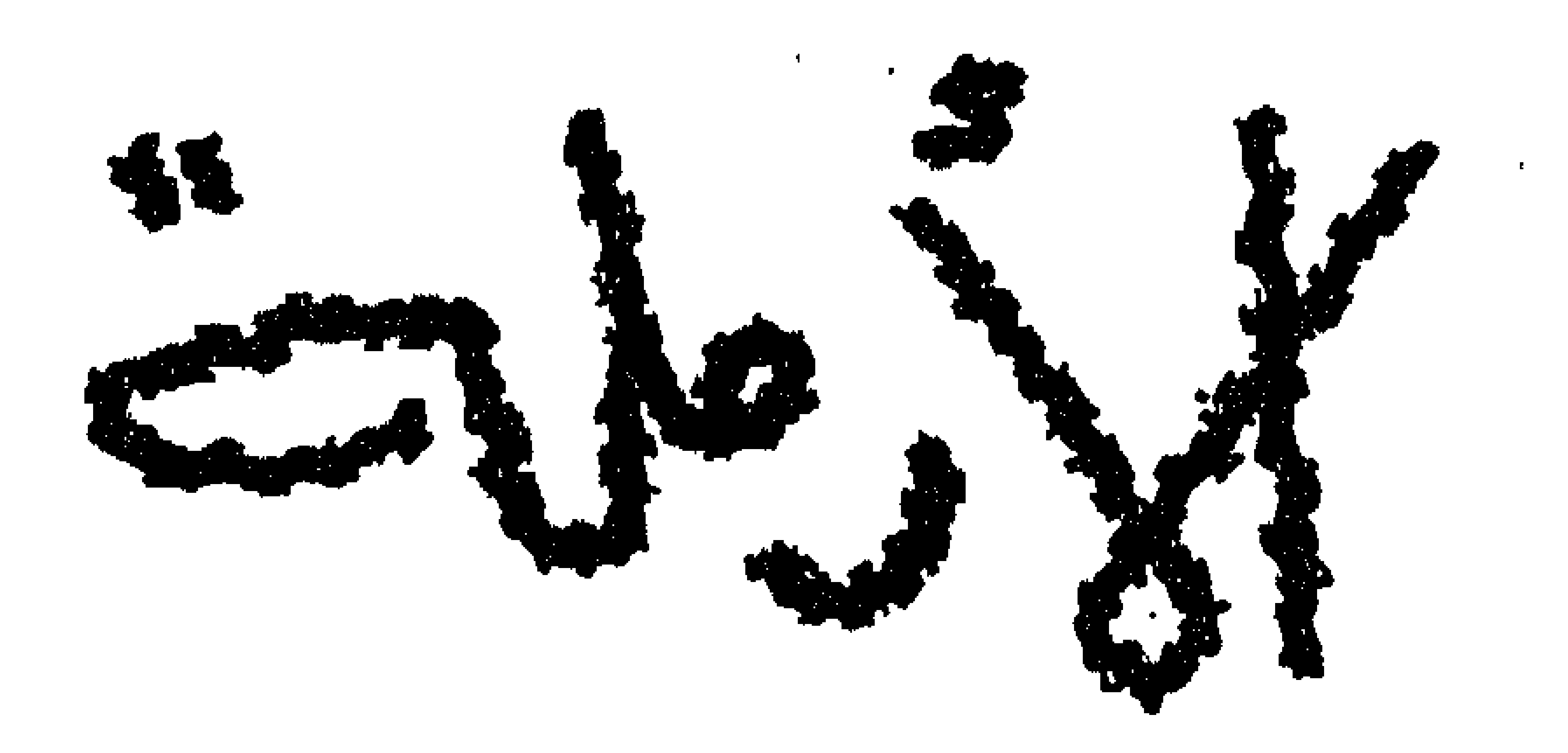
أنه لاينسى .. ذلك الرجل المفلوج الذى كان يقطن غرفة مظلمة الى جوار السلم .. كيف كان يزحف حتى يبلغ النافذة ثم يمد يده من خلال قضبان سجنه الى كل عابر طريق يطلب لقمة من الخبز .. ليعيش يوماجديدا فى فالجه وعماه .. ولاأهل له ولا زوج ولا ولد ولا صديق .. أى قوة كانت تربط هـذه النفاية بالحياة سوى هذه الرغبة العمياء التى تسوق القطار .. هذه الرغبة التى لاعقل لها ولا منطق .. هو يعرف كل هـذا ولكنه مع ذلك لايلقى بنفسه من النافذة .. بل يلقى بكل هذه الثرثرة التى تعصف برأسه فى عرض الطريق ويعتمد رأسه بين كفيه وقد أحس انه كالجالس على قارعة الحياة لاهو بالحى ولا بالميت .. وهو يتمنى فى يأسه لو كان مؤمنا بالله أو بالدنيا أو بنفسه أو بتعويذة أو بعود من القش فان الايمان بأى شيء ضرورة لايستغنى عنها انسان وحيد ضعيف يتخبط فى خضم من الأحاجى والألغاز ..

وتتجاوب الصرخات فى الزقاق المظلم فيرفع رأسه ليجـد أطفاله يتقاذفون الحجارة. وقد أصابت رأس أحدهم فراح يعوى .. فيصيح الأب لايدرى من أى أعماق يستخرج هذه الصيحة العاتية .. اصعدوا ياكلاب ...

واذ تهرول هذه الجرذان المذعورة على السلم تتجمع كل ثورة ذلك الأب وكل سخطه فى يديه فيروح ينهال عليهم لطما .. وهم يترنحـون أمامه كالذباب .. ويظل يضرب حـتى يفرغ انفعاله فيقف حائرا وقد أدركه الخجل .. وأحس بالستين عاما من الغباء تجثم على أنفاسه .. لقد أراد أن يغير وجه الأرض ويقيم الدنيا ويقعدها فعجز حتى عن تغيير ثوبه وفى النهاية كان

كل ما استطاع أن يفعله هو أن يضرب بضعة من الصغار الضعاف ..

وهو يجمع أنقاض نفسه ويجر رجليه ويتكوم على الحصير ويبكى وقد أحس أنه .. أصغر من جناح بعوضة .. وأى شيء كان يمكن أن يكون غير هذا .. وهو واحد فقط .. بين ملايين من الأوثان فى أرض هى واحدة من لا نهايات من الأراضى لايعرف لها معنى أو سببا .. وانما يعيش فيها .. يعيش فقط .. وهذا كل شيء ..


الأرملة



أم زينب امرأة فى الأربعين سمينة مكتنزة يجتمع فى لحمها المترهل الورد والخمر واللبن بنسب متساوية فهى تحفة بلدية من التى يحلم بها العمد كل ليلة .. وجه أبيض يحيط به اطار من الشعر الأثيث الفاحم ويرصعه فم أحمر كفص من العقيق ونهدان بارزان وردفان ممتلئان وساقان مستديران وجسم شهى يذوب الجليد ويغلى بين طياته .. وهى تسير فيهتز لحمها ويكظ ويخرج ويدخل من فتحات ثوبها وتبرز بطنها المكورة ويطفر العرق من جبهتها فى قطرات لامعة ويسيل على خدها الأحمر ويتجمع على صدرها فيكاد ينافس بريقه بريق البروش الماسى الثمين الذى يتوج نهديها ..

ولكن كل هذه الفتنة قد تيتمت .. فقد مات .. مات الحاج حنفى الذى كان يعتصرها كل ليلة بين ذراعيه ويشبعها لثما وتقبيلا ولم يعد لها فى بقية حياتها الا السواد تتشح به والبكاء تسكن اليه .. ثلاث سنوات مرت على وفاته وهى مازالت على وفائها لذكراه .. ترتدى السواد وتبكى كل ليلة وتتقلب على فراشها الواسع وتحتضن الوسائد وتذكر قسوته عليها وضربه المبرح لها بهراوته الغليظة فيزداد حنينها لذكراه ..

مامن رجل مر عليها الا وقارنته فى خيالها بالحاج حنفى وتحسرت على حظها .. أين تلك الأجسام الناعمة والحركات المخنثة والنظرات الوديعة من جسم الحاج حنفى الضخم وحركاته الوحشية ونظراته الضارية .. لقد كانت الحارة كلها ترتعد حينما يمر بها والنسوة يختبئن خلف « شيش » النوافذ ويتبعنه بنظراتهن الوالهة حتى اذا رفع بصره اليهن ومر بأصابعه الغليظة على شاربه الكث ندت عنهن ضحكات خافتة وارتعدت سيقانهن وخفقت قلوبهن فى نشوة .. أين هذه الدمى من الحاج حنفى .. الحاج حنفى الذى كان يرعد كعاصفة اذا غضب ويزلزل الأرض اذا ضحك .. انها لتتذكره وهو يصعد السلم فتكاد

تسمع الخشب وهو يطقطق ويتفلق تحت خطواته وتذكره وهو يدخل عليها كل ليلة بعد الثانية صباحافيوقظها بلكزة فيجنبها فتكاد تتحسس وهي نائمة مكان هـذه اللكزة الحبيبـة وهي تستعذب هذه الاحلام فتسترسل فيها فتهب من نومها وتهيىء له العشاء وتصغى الى شتائمه فى صمت ··

انهابهيمة ·· هذا صحيح ·· وأباهاحيوان ·· وأهلهامواشى هذا صحيح أيضا انها لاتستطيع أن تراجعه فى رأى بل تطأطىء رأسها وتمضى الى سلةالخبزفتحضرله ثلاثة أرغفةتضعهاأمامه ·· فيتحسسها بأصابعه القذرة ويصيح فى وجهها طالبا خبزاطريا لا خبزا لدنا فاذا وجد الخبز تحت أصابعه طريا لعن لها الاجداد ونعتها بالعمى وطلب منها خبزا لدنا لا خبزا طريا فتمضىلتوها وهى مازالت منكسة الرأس لتحضر له ماطلب دون أن تناقشه ثم تحضر له قلة الماء وصحن الخيار وتظل تدور حوله كفراشة حائرة وهى تتحرق الى شتمة من شتائمه تملأ بها فراغ قلبها بدلا من هذا الصمت الموحش الذى لاتسمع فيه الا صوت الماء وهو يقرقع فى حلقه الواسع وصوت الخيار وهو يتمزق تحت أضراسه ·· ثم تجلس الى جانبه فى النهاية وتبدأ تأكل لقمة فلقمة وهى تبتلع مع كل لقمة نظرة شديدة يحدجها بهاوتبتسم ابتسامة وجلة حينما يزمجر فى وجهها ·· انت مبتكليش ليه ·· هو سم ·· والا عاملة مختشية بنت ناس ·· ما أجمل تلك الأكلات ·· وما أجمل الحاج حنفى حينما يهب واقفا بعـدها ويترك الطبلية ويذهب الى الفراش دون أن يغسل يديه وهـو يجرها أمامه من عنقها كسائمة ·· وما أجمل الليل بعد ذلك ·· الليل الساكن الذى لايقطعه الا حفيف شارب الحـاج على شفتيها وخديها ·· ذلك الحفيف الذى يبعث النار فى جسمها الهامد المتراخى ·· آه من ذلك الليل ومافيه ·· تذكر أمزينب كل هذا وعيناها مفتوحتان تسحان دموعا من ذوب اللهيب ··

وقد ترك المرحوم لارملته بيتا من ثلاثة طوابق هو كل ثروتها التى تعتمد عليها فى حياتها ·· وقد تضاعفت قيمة هذا البيت عندما جاءت الحرب وارتفعت أجور المساكن فأصبحت الغرفة

الواحدة منه في سعر طابق كامل مما أغرى أم زينب باخلاء البيت كله وتأجيره من جديد ، فراحت تضايق السكان بشتى الوسائل ·· مرة تقطع الماء ومرة تقطع النور ومرة أخرى تخلع الاقفال ومرة رابعة تربط كلبا كبيرا متوحشا على الباب وتهدم سور السلم وتترك النازل والطالع تحت رحمة القدر ··

وزاد من قسوتها على السكان حزنها الشديد وحرمانها وحياتها الخاوية وحظها النكد فأصبحت تجد لذة فى الشجار واحداث الشغب وتعكير صفو الهانئين السعداء من جيرانها ·· وعرف جيرانها عنها هذا فعذروها وقدروا ضعفها واحتفظ كل منهم بشقته ورضى بالضيق على أن يغادرها ويسكن بأضعاف الايجار في شقة جديدة ·· ولم يكن ينجو من شراستها وطبعها الحاد الشكس الا رزق الشاب الأعزب الذى كان يقطن وحيدا فى غرفة على السطح ، فقد كانت تعامله كابنها وتمهله فى دفع الايجار وتمرضه اذا مرض وتهيىء له الطعام اذا غاب وتكنس له الغرفة وتسليه بالاقاصيص الشعبية الطريفة التى تعلمتها عن المرحوم زوجها وكان هو بدوره يعتبرها كأمه ويبادلها حبا بحب وحنانا بحنان ·· وينظر الى زينب نظرة ذات معنى لم تكن تغيب مراميها عن بال الأرملة المحنكة ، ولكن لسبب ما لاتدريه كانت لاتشجع هذا الغزل البرىء ولا توافق فى نفسها على زواجه من بنتها ··

والليلة ·· حينما صعدت الى غرفته تحمل الموقد المثقوب الذى طلب منها اصلاحه لم تستطع أن تنصرف لتوها لأنها وجدته مريضا ورأت من واجبها أن تهيىء له عشاءه · فجلست على الأرض وأشعلت الموقد ووضعت عليه اناء الطعام وانطلقت تثرثر وهى تقلب الطعام وتشرد من وقت لآخر وتغرق فى همومها ·· انه وحيد مثلها محروم من الحب والحنان ·· ماذا لو تزوجها ·· ولكن لا ·· انه يبحث عن فتاة صغيرة فى مثل سنه ·· أى أبله ! وماذا تفهم الفتاة الصغيرة فى مطالب الرجال وخدمة الرجال ·· ان الحياة الزوجية فن ·· الطهى فن ·· وتنظيف الأثاث فن ·· والنوم فى أحضان الرجل فن وأى فن ··



وصعدت رائحة الحساء فى أنفها فتــذكرت المرحوم وقالت لرزق الذى كان ملتحفا فى فراشه ان الحاج حنفى كان لايحب لونا من ألوان الطعام كما يحب حساء السمك وتمثلت لهاوهى تتكلم صورة الحاج وهو جالس يأكل الى جانبها وتخيلته وهو يهب من جلسته ويسوقها من عنقها الى الفراش وأحست فى قلبها بحرقة وعلا نشيجها ونسى رزق آلامه ونزل من فراشه وجلس الى جانبها يواسيها وسرى الدفء من الموقد فتمشى فى قدميه وساقيه وأحس بحرارة جسمها الى جانبه وسقطت دموعها على يديه كقطرات من نار فتحرك قلبه وغمره شعور جـديد غريب وراح قلبه ينتفض مع انتفاضات بدنها .

وحينما انزلق ثوبها الاسود الحريرى فكشف عن معظم ساقها وهى جالسة تنتحب لم يستطع رزق أن يقاوم شعوره فطوقها بذراعه وقبلها فى وجل وهو يتوقع أن تصفعه ولكنها ابتسمت فى ضعف ونسيت انها تبكى على المرحوم وقبلته قبلة حارة رنانة على خده ثم طوقته بذراعها السمين ودفنت رأســه فى صدرها وراحت تقبله وهو يجيبها فى حرارة وعنف .. واستغرق الاثنان فى حمى من الهوى العاصف ..

وقد تأخرت أم زينب الليلة عند رزق ولم تبرح غرفتــه الا منتصف الليل وكان أول مالاحظه الجيران فى اليوم التالى هو الفستان الاحمر القانى الذى لفت به جســدها بدلا من فستانها الاسود وابتسامتها العذبة ووجهها المشرق الذى يقطر دما من شفتيها وخديها ومعاملتها التى تحولت فجأة من القسوة والفظاظة الى الرقة واللين وكان أول مالاحظته زينب هو تغير أمها ازاءها وقسوتها البالغة عليها .. قسوتها التى لم يكن لها مبرر ، فهى تمنعها من الخروج وتمنعها من التزين وهى تحبسها وتحذرها من الشبان العزاب ، وخصوصا من رزق ولم تبـخل العشيقة الجديدة على عشيقها بشىء ، بل أعطته نفسها جسـدا وقلبا وروحا ، فأحالت حياته الخاملة الى نيران .. وفتنتــه بحرارتها وشبابها حتى نسى سنها وبدأ يعاملها كطفلة يدللها ويهدهدها ويداعبها كفتاة فى فجر نضجها ، ولكن عقلها الماكر

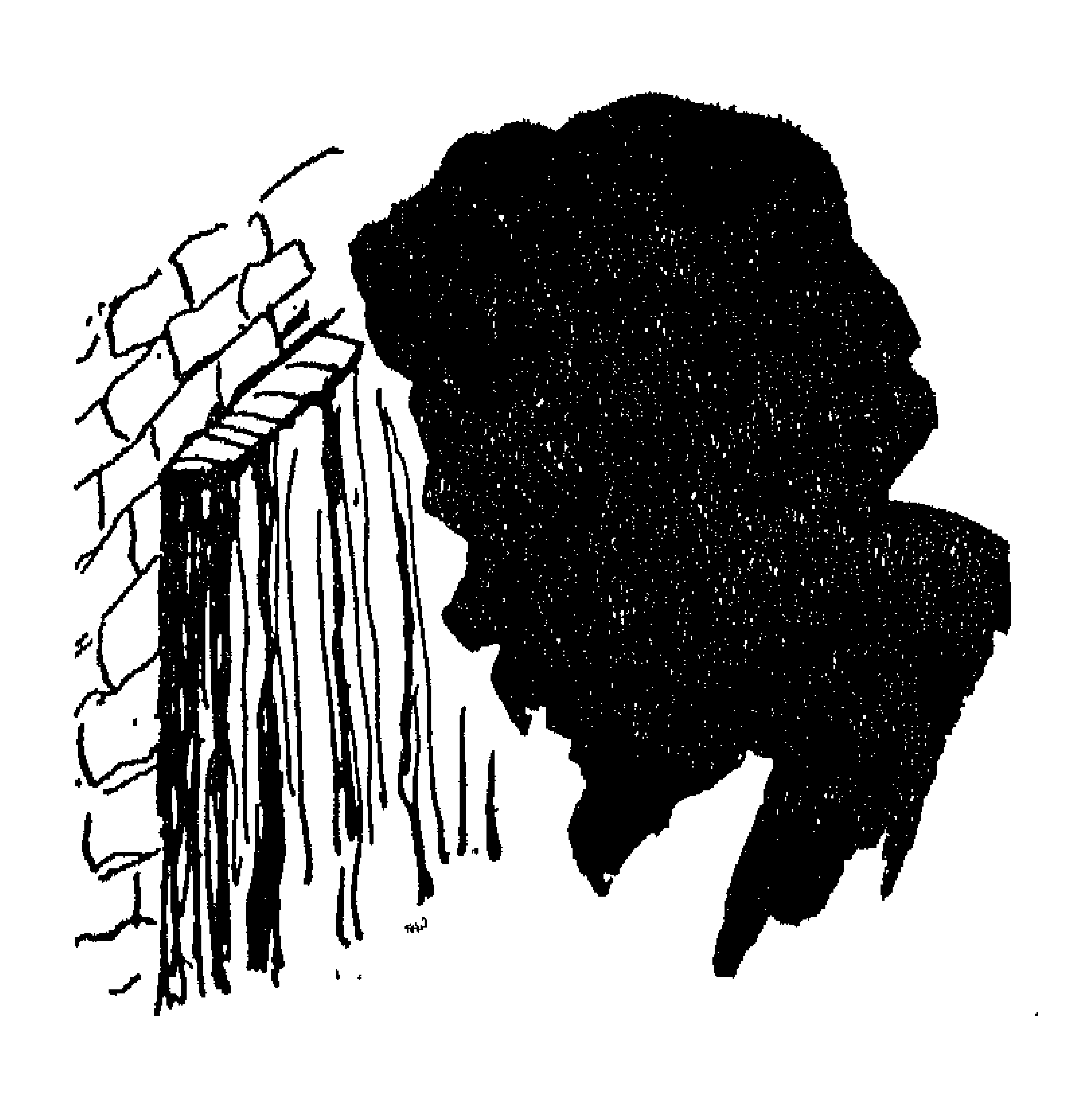
مالبث أن تيقظ فأدركت أنها أمام أبله مفتون تمثل بين يديه قطعة الحلوى الوحيدة التى يملكها وأنها تستطيع أن تحصل منه على أكثر من هذه العلاقة المؤقتة لو عرفت كيف تمثل دورها باتقان حتى نهايته ، فبدأت تتراجع وتبدى له وجها عابسا باردا ثم صدته عنها وأغلقت فى وجهه الباب وتركته كالحطب الملتهب يأكل نفسه ·· بينما راحت تسرف فى زينتها فتخط حاجبيها بالكحل وتصبغ خديها بالاحمر وتضمخ شعرها بالطيب وتلجأ الى الأساليب البلدية المثيرة فى التزين وتقف فى نافذتها عند خروجه ودخوله فترشق وجهه الاصفر بنظرة ينتفض لها جسده كله حتى أحالت عشقه الهادىء الى جنون ··

وما كاد يمر الشهر حتى كان يتمسح كالقط الذليل ببابها ويتوسل ويتذلل ويطرق قلبها بالدموع والهـــدايا ويذكرها بالليالى الخوالى ولكنه لم يجد أمامه هذه المرة أم زينب العشيقة العاهرة التى كانت تتلوى وتتأود بين ذراعيه وتتأوه من ضماته بل وجد أم زينب أخرى عاقلة فاضلة تستنكف من لمس يده وتبتعد عنه وتحدثه عن الدين والاخلاق ·· فلما قال لها فى صوت باك انه لايستطيع أن يعيش بدونها قالت له فى كبرياء انهــا لاتستطيع أن تستسلم له بهذه الطريقة المشينة وانهــا امرأة طاهرة الذيل وان ضميرها لايرضى بما يغضب الله فاذا لم يكن من هذا الحب بد فليكن عن طريق سنة الله ورسوله فقبل رزق الذى كان يعانى فى ذلك الوقت حالة تشبه الهوس ··

وتم عقد القران فى يوم لاينساه أهل الحى وضم اطار الحب أضلاعه الأربعة على احدى معجزاته ·· أربعين سنة فى أحضان عشرين ·· وفيل فى أحضان حمل ··

وحضر الزفاف كل صغير وكبير فى الحى الا زينب فقد قالت أمها أنها كانت مريضة ولكن الذى كان يترك الحفل الصاخب فى تلك اللحظة ويفتح الغرفة الضيقة المغلقة فى أقصى الشقة كان يجد زينب جالسة وحدها تبكى وفى يدها عصــا غليظة ذات نتوءات هى عصا أبيها المرحوم الحاج حنفى ·

الدرويش وصل



يا وله ·· هات لى الجبـة ·· قوام ·· ياواد ياضـلالى ··
دى الجبة ·· أقولك هات لى الجبة ·· تجيبلى البلغة ··
ـ ها ·· ها ·· ها ··

ـ ياوله اختشى ·· هاتى النبوت يانبوية ··
ـ ها ·· ها ·· ها ··
واختفى الولد كالجرذ ·· وهرول الشيخ على خلفه وهو يتعثر فى ردائه الطويل ثم توقف لحظة وهمس ··

ـ ولد عكروت ··
وضحك ·· وبدا فى سرواله الطويل ذى الدكة والشرابة كبائع القلل ··

ـ ولد عكروت ·· مزبلح ·· منحوس ·· قليل الحيا ··
وبحث عن الجبة حتى وجدها فى صفيحة قديمة ··
ـ ولد عكروت ·· مش متربى طالع لأمه ··
وبحث عن الككولة حتى وجدها فى المرحاض ··
ـ شوف ياخويا المرة سايبة الككولا فين ·· نسوان سكك لايعرفوا يربوا عيال ولا يصـونوا هدمة قديمة ·· الـككولا الطاهرة حطاها في بيت الأدب ·· تبـقي دى بنى آدمه ·· والا ·· بهيمة ··

·· ولية ·· ولية ·· يا أم أحمد ·· اتخفت فين ·· دى بنت الرفضى ··
ومضى يبحث عن النبوت حتى وجده خلف الباب ··
ـ ياخويا ده مفيش حاجة جنب التانية أبدا ·· يعنى لو كان لنا بيتين ·· كنت لقيت البلغة في بيت والعمـة فى بيت ··
وليه ·· وليه ·· يا أم أحمد ·· ياوش النكد ·· أعوذ بالله ··
وأخذ يبحث عن المسبحة حتى وجدها تحت قالب طوب فوقف يضرب كفا بكف ··
ـ كمان السبحة تحت قالب طوب ·· وايه دى كورة شراب

•• هو الواد المنجوس اللى قالب كيان البيت •• هو اللى مخليه زى الخرابة ••

واد يا أحمد •• وله •• ولا له حس ولا خبر •• نهايته •• له ساعة •• المنجوس ده ••

قال هذا واكمل ثيابه •• ومد من قامته وتنخم وخرج وهو يحوقل ويبسمل ويخرج أصواتا كالمضمضة ••

حى •• غفار •• قهار •• جبار •• فالق الليل من النهار •• حليم •• حليم •• حليم ••

ومد بصره الى الناس فى الشارع وبحلق فيهم كأنه لايراهم •

يا قطب الرجال يا سيد •• ياذو اللتامين •• ياصاحب الخطوة •• ياباب الرسول •• يا بحرالفتوح •• نظرة ياعم •• ياعم يا سيد •

كانت وجهته مقهى الدراويش •• وكان يسير مترنحا فى قفطانه •• ومن لحظة لأخرى يحملق فى دكان من دكاكين الحمص •• ويهتف •• يا عم •• ياسيد •• ثم يعود الى غيبوبته •

وعند المقهى كانت فى انتظاره حلقة الدراويش بمسابحهم الصفراء وعيونهم الزائغة •• وكان الشيخ عبد المتعال فى الوسط يقرأ بصوت مرتفع من كتاب قديم •• وكل مافعله عند وصول الشيخ على •• أن صاح:

ـ بس •• بس يا أسيادنا •• خدوا بالكم •• احنا وصلنا فين •• اللهم صلى على سيد المرسلين أيوه •• احنا كنا فى سيرة البدوى ••

ومضى يقرأ فى حماس بقية سيرة ولى الله ••

ـ ومنهم الحسيب النسيب أبو العباس أحمد البدوى رضى الله عنه •• ولد بفاس ببلاد المغرب •• ولما بلغ من سنه سبع سنين سمع أبوه قائلا يقول له فى المنام •• يا على •• انتقل من هذه البلاد الى مكة المشرفة فان لنا فى ذلك شأنا •• قال الشريف حسن وهو أخو البدوى •• فما زلنا ننزل على عرب فيتلقوننا بالترحيب والاكرام حتى وصلنا الى مكة المشرفة فى أربع سنين فحططنا رحالنا وعشنا زمنا رغيدا حتى توفى والدنا •• وكان

أحمد أصغرنا سنا وأشجعنا قلبا وكان يلقب بالبدوى من كثرة ماكان يتلثم وكانوا يسمونه فى مكة العطاب والغضبان لشجاعته .. فلما حدث عليه حادث الوله تغيرت أطواره واعتزل الناس ولازم الصمت .. فكان لايكلم الناس الا بالاشارة . وكان اذا أتته النوبة يصيح صياحا متصلا ..

يا سلام .. يا سلام .. دى اسمها الشربة يا أخواننا .. شربة الولاية ..

ثم انه فى شوال من تلك السنة رأى فى منامه ثلاث مرات قائلا يقول له قم يا أحمد واطلب مطلع الشمس فاذا وصلت مطلع الشمس فاطلب مغرب الشمس .. وسر الى طندتا فان بها مقامك .. فقام من منامه وشاور أهله وسافر الى العراق .. فتلقاه أشياخها ومنهم سيدى الكيلانى وسيدى الرفاعى وقالوا : يا أحمد .. مفاتيح العراق والهند واليمن والروم والمشرق والمغرب بأيدينا فاختر أى مفتاح شئت .. فقال لهم البدوى : لا حاجة لى بمفاتيحكم .. ما آخذ المفتاح الا من يد الفتاح .. قال الشريف حسن .. فلما فرغ أخى من زيارة أولياء العراق خرج قاصدا الى مصر فبلغها فى رمضان .. وكان ذلك فى عهد الملك الظاهر أبى الفتوحات .. ودخل طندتا .. وآوى الى دار شخص من مشايخ البلد اسمه ابن شحيط .. وصعد الى سطح غرفته وكان نهاره وليله واقفا شاخصا ببصره الى السماء .. وقد انقلب سواد عينيه حمرة كالجمرة ..

تمام يا أسيادنا زى ماقلت .. هى الشربة .. الشربة تعمل كده .. وكان يمكث أربعين يوما فأكثر لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا ينزل من السطح ويتصايح صياحا متصلا .. وظل على هذه الحال الى أن مات وقد أوفى على السبعين .. وقيل فى وصفه أنه كان طويلا كبير البطن غليظ الساقين .. عبل الذراعين .. لايفارق وجهه اللثامان أبدا ، وكان اذا لبس ثوبا أو عمامة لايخلعها لغسل أو لغيره حتى تبلى فيبدلونها بغيرها ..

ــ وكان يلبس البشت الأحمر ..

قالها أحد الدراويش مقاطعا وهو يخبط المائدة بعصاه ..

ـ ألم يذكر هذا عندك ياشيخ ٠٠:

ولكن عبد المتعال مضى يقرأ ٠٠ وهو يرمق محدثه باحتقار ثم انفجر فيه فجأة ٠٠

ـ استحى من جهلك ياشيخ ٠٠ ده البشت الأحمر دهلبس سيدى عبد الرحيم ٠٠

فاحمر وجه الشيخ وسكت كأنه أخطأ فىحركةالكرةالارضية ٠٠ ومضى عبد المتعال يقرأ وقد انبعج فى قفطانه من السرور ٠

ـ أما عن كرامات أبى الفتيان ٠٠

فأجابوا جميعا فى صوت واحد ٠٠

ـ أيوه والله كرامات أبى الفتيـــان ٠٠ حكاية الحمارة ٠٠ حكاية الحمارة دى تحقيقها ايه يا شيخ أفادك الله ٠٠

ـ لا دى ٠٠ حكاية الحمارة دىحديثةأوى ٠٠ دى من روايات الشيخ الشناوى رضى الله عنه ٠٠ عن أخيه الذى ضـاعت له حمارة فى زيارة ضريـح ولى الله فقـال والله لا أخرج ٠٠ حتى تجىء حمارتى ٠ فبينما هو جالس فى القبة اذا بالحمارة واقفة الى جوار الضريح ٠٠

فصفق المشايخ وقبلوا أيديهم ظهرا لبطن وتصايحوا من كل جانب ٠٠

ـ ياسلام ٠٠ الحمارة واقفةإلى جوار الضريح ٠٠ ياسلام ٠٠ ياسلام ٠٠ يا ألطاف الله ٠٠

وانبعج الشيخ فى قفطانه كأنه سيلقى قنبلة ٠٠ وقال :

ـ أتعرفون حكاية الشوكة ٠٠

فقالوا فى فضول :

ـ لا والله٠٠ وما هى حكاية الشوكة ٠٠

ـ حدث هذا لأبى الغيث ابن كتيلة حينما أنكر على السيد كراماته ٠٠ فدخلت فى حلقه شوكة ٠٠ وتورمت رقبته حتى صارت كخلية نحل ٠٠ ولم يقدر العطار أن يستخرجها بدهن غطاس ولا بحيـلة من الحيـــل ٠٠ وأشرف الرجل على الموت حينما زعق ٠٠

ـ ياسيد ٠٠ انجدنى ٠٠



ـ ياسلام ·· يا ألطاف الله ··

ـ فعطس عطسة شديدة ·· فخرجت الشوكة من حلقـــه مغمســة دما فصفق المشايخ وزاغت أبصـــارهم وهللوا فى ضراعة ··

مدد ·· مدد ·· يا أبو الفتيان مدد ··

واسترسل الشيخ ··

ـ أتعرفون كيف مات سيدى عبد المجيد ··

ـ لا والله ··

ـ لقد كشف له البدوى عن لثامه الفوقانى فصعق ومات لساعته ··

ـ يا سلام ··

وهنا غرقت أحاديث الجماعة فى دق الطبول وجلجلة المباخر وصراخ حى ·· حى ·· حى ·· وارتفع بين الضجيج صوت وحيد كالصـــاروخ يردد ·· الذكر يا أخوان ·· الذكر ·· الذكر ··

وفى لحظة كانت الجماعة تسير كتلة واحدة مترنحة سكرانة من اللحم وقفاطينها تتمايل فى عتمة البخور وانسدال الغروب وضوء الفوانيس الأصفر الباهت ثم اختفت فى زقاق ضيق مبلط ··

***

حى ·· حى ·· حى ·· حى ··

كان الليل قد انسدل ·· ولم يعد الا الفانوس ·· ومن حوله أشباح ·· وناى يسيل فى عذوبة ثعبانية تخطف العقل ·· والمنشد يترنم فى مقاطع طويلة ··

أنا الملثم ســـــل عني وعن هممى
ينبيـــك عزمى بماذا قلته بفمى ··
لك الهنـــا يا مريدى لا تخف أبدا
واشطح بذكرى بين البـــان والعلم
اذا دعـــانى مريدى وهـــو فى لجـج
فى قاع بحر نجا من ساحة العـــدم

حى .. حى .. حى .. حى ..
وتراخى الدق .. وتحولت المقــاطع الى أنات ممطوطة ..
واسترسل المنشد ..

سهام الليل صائبــة المرامى
اذا وترت بأوتار الخشوع ...
يقومهــا الى المرمى رجال ...
يطيلون الســجود مع الركوع
بألســنة تهمهم بالدعاء ...
بأجفان تفيض من الدموع ...

حى .. حى .. حى .. حى ..
وأسرعت الطبول فجأة .. وأسرعت .. وأسرعت .. وأخذت الأشباح ترتعش كمغازل الصوف .. ثم انتهى الشوط بصيحة طويلة .. مد .. د

واستلقى المشايخ على الأرض .. فى اغماء الوصول ..
وحينما كان الفجر ينبلج .. كانت أزقة القاهرة تلفظ هذه الجماعة الضالة وكانوا يتلمسون طريقهم وكل منهم يتوكأ على ذراع الآخر .. وكانوا يتهامسون ويستخرج كل منهم من جبته شيئا يمضغه ويستغرق فى سبات .. يحلم .. حلما غريبا من أحلام اليقظة ..

وما لبثوا أن تفرقوا الواحــد تلو الآخر ولم يبق منهــم الا الشيخ على .. يترنح فى جبته التى غطاها التراب ويهمهم بحديث الى نفسه ..
ــ ربنا كريم ماينساش حد .. وكل صنعه كويس .. الدنيا دى كلها من صنعه .. الليل والنهار .. والصيف والشــتا والربيع والخريف .. والمية والقمح والسكر والنشا ..
وغاب قليلا ثم أردف وهو يلعق شفتيه ..
ــ السهرة الليلة دى كانت غندرة والفته ملك .. يا سلام .. يا أسيادنا دى ريحة المستكة والصندل لسه فى مناخيرى ياحى .. يا قيوم ..

وعاد الى الاستغراق ثم قطع الصمت مرة أخرى ..

ـ ألديك بيدن .. والشمس طالعة عجيبة .. لكن كانت فين الشمس طول الليل .. كانت عند ربنا .. حكم .. والقمر راح فين .. عند ربنا برده .. قدرة الهية صحيح .. وربنا عنده كل حاجة .. الرحمة والفلوس .. والانسانية واللوح المحفوظ .. والملايكة .. والكرم .. ياسلام ..

ثم صاح فجأة ..

حى .. حى ..

يا ساتر ايه ده .. دى حفرة كبيرة دى تودى على فين دى .. على القلعة .. الواحد يقعدفى الحفرة دى .. ويدلدل رجليه .. يوصل القلعة .. سكة تحت الأرض .. من أيام هارون الرشيد .. عجايب .. الدنيادى كلها عجايب .. يا ترى البت نامت والا لسه بتكح زى كل ليلة .. وأنا شطبت على القرشين اللى معايا .. نهايته .. ربنا موجود .. أصل ربنا كريم .. كريم أوى .. أوى وبيحب كل الناس .. بيحب الشيخ على وأم أحمد .. وأحمد وخضرة .. وكل الناس .. وأنا كمان بحب ربنا .

والحب ده هو كل حاجة .. هو كنز الرفاهية .. والصحة .. والانبساط .. والتقدم .. والمجتمع .. والضـــياء .. والـ .. والضياء .. أيوه .. مش كده ياشيخ .. المرض .. ده كرم .. كرم من المولى .. فضل من الدايم .. آية من المتجلى .. اللى فرجه قريب .. قريب قريب .. قريب .. ايه دى .. مش دى طاقة فى السما .. طاقة كبيرة قوى .. يا ألطاف الله .

وبدأ الشيخ يهرول وقد اتسعت حدقتاه وانطلقت من حنجرته بحة متقطعة يا رب .. يا رب ..

وحينما بلغ باب البيت ذى السقاطة وقف قليلا يلهث ويتلفت خلفه ويقلب ورقة جرائد ممزقة وجدها فى جراب قفطانه .. ثم جذب السقاطة فى عنف وصاح ..

أم أحمد ٠٠ يا أم أحمد ٠٠ خلاص يا أم أحمد ٠٠ الفرج جه ٠٠ الوقفية والعمارة ٠٠ ورضا ربنا ٠٠ ورحمة ربنا ٠٠ وكرم ربنا ٠٠ فى جيبى هنا ٠٠ افتحى يا أم أحمد ٠٠ افتحىللرحمة افتحى للرحمة والاكرامية والانعامية ٠٠ والـ ٠٠ والنظام ٠٠ والدوام ٠٠

ياباب النبى ٠٠ مد ٠٠٠ د ٠٠

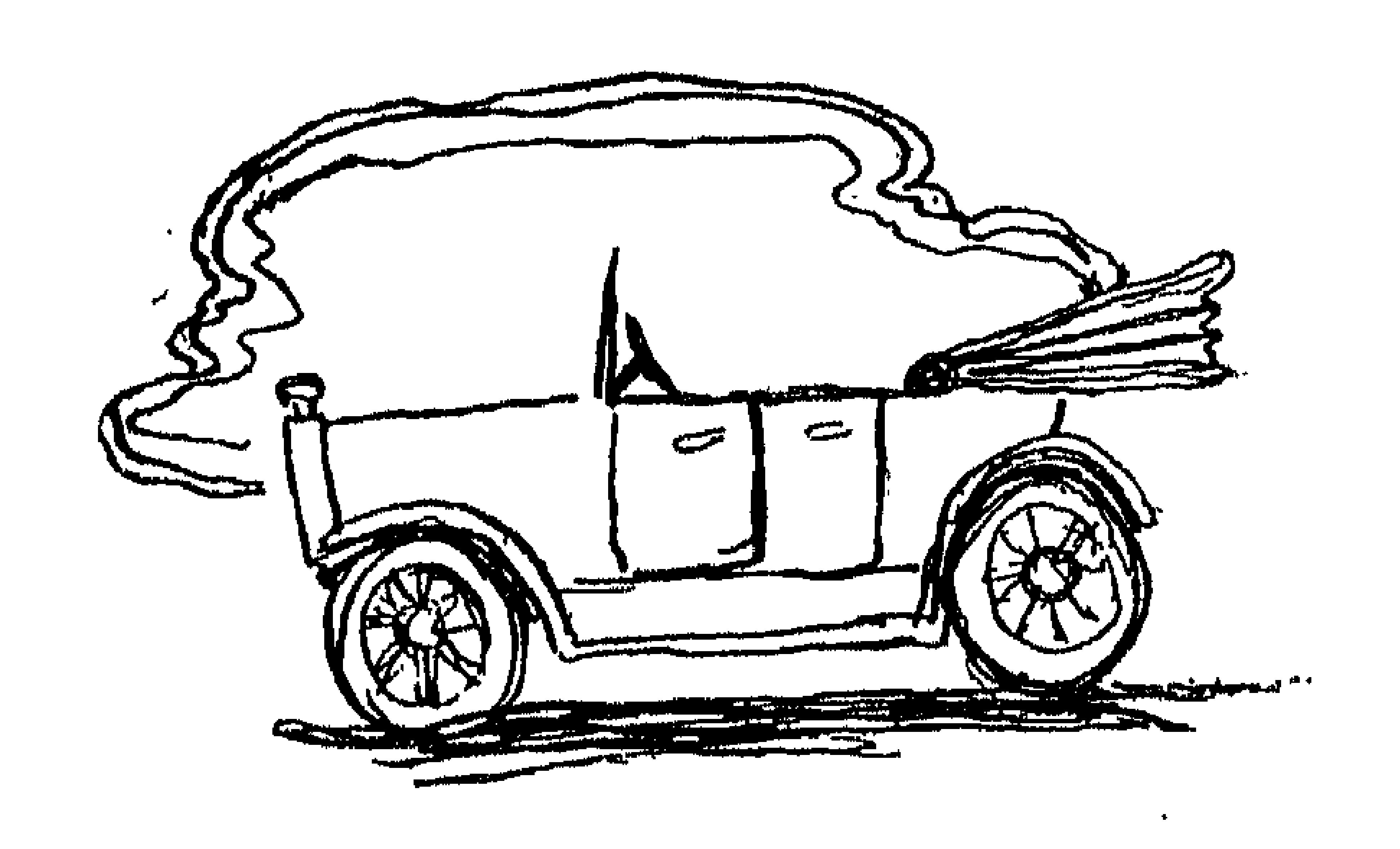
وكانت المرأة ترتعد من الخوف عند الباب ٠٠

وكان الرجل يرتعد هو الآخر فى فرح حيوانى غريب ٠٠

لقد فقد عقله ٠٠ لقد جن ٠٠

لقد وصل الى نهاية المطاف ٠٠


سفریات



بنهـا .. طنطا .. نفر .. نفر .. العربية قايمة .. نفر .

كان الرجل يعوى والميدان ساكنا والساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل ورائحة الشواء تتصاعد من باعة المبار ، وقد اصطف حولهم طابور من الكلاب الضالة .. وأنا وحدى أدق الأرض بحذائى ، وأقرأ التلغراف فى يدى للمرة الخمسين .

زيزى انتحرت .. ابتلعت أنبوبة اسبرين .. حالتها خطرة .. احضر حالا ..

وكيف أحضر حالا .. ولا توجد قطارات ولا أتوبيسات .. وعاد الرجل يعوى .. بنها .. طنطا .. نفر .. نفر .. نفر .. وقفزت داخل العربة فى غير وعى .. ونظر الى الرجل فى بلاهة ..

ــ رايح طنطا حضرتك ؟ ..

ــ أيوه ..

ــ بنها .. طنطا .. نفر .. نفر ..

ــ ما أنا هو .. ياسيدى .. ماتتكل على الله بقى ..

ــ فاضل لسه نفرين يابيه .. العربية ماتقومشى الا تسعه .

ونظرت حولى فى السبعة آدميين الذين يلفظون أنفاسهم .. وتصورت اثنين آخرين .. وتصببت عرقا .. ورمقنى الرجل من جانب عينه ، ثم مال على أذنى هامسا ..

ــ تدفع دوبل ؟ ..

وهرشت رأسى ، وأجبت ..

ــ يعنى كام ؟ ..

ــ يعنى نص جنيه !! ..

ــ أمرى لله .. قوم بينا ..

ونظر الى الرجل مستريبا . ثم زحف الى جوارى .. وقرأ الفاتحة ، وأدار مفتاح الماكينة ، ثم ضغط بقدمه .. فانطلقت العربة تقفز وتكركر .. واكتشفت انى جالس فى شىء يشبه عربة اليد .. بدون نوافذ أو سقف .. وكان الترباس الوحيد

الذي يحفظ الباب في مكانه هو يدى ·· التى كان عليهــا أن تلتف حول أضلاع العربة لمدة ثلاث ساعات متواصلة ·· واندلق الابريق الذى يحمله جارى على ثيابى ·· ونظر الى الجار الفلاح ·· وطبطب على فخذى :

ــ معلهش ·· احمد ربنا اللى ماهو زيت ··

ــ الحمد لله ··

ــ انت منين ياعمى ··

ــ من طنطا ··

ــ شى الله يا سيد ·· بلديات ·· ابن مين فى طنطا ؟ ··

ــ الطحاوى ··

ــ يا سلام ناس أصال ·· الراجل فيهم زى الجنيه تمام ·· عم أحمد الطحاوى حلاق مليح ·· حجابه ماينزلش الأرض ·· وطهارته حلوة ·· هو اللى طاهرنى وأنا صغير ·· ودق لى وشم السبع على صدرى وأنا كبير ·· راجل فضله علينــا كلنا ·· وجاد الله الطحاوى الدفان ·· ومسعد الطحاوى المغســـل ·· ورزق الطحاوى العرضحلجى كلهم ناس طيبين ·· وحضرتك بقه صنعتك ايه ؟ ··

ــ حكيم ··

ــ يعنى حلاج زى عم أحمـــد ·· عملت طيب ·· هى دى أحسن صنعة الواحد منا يجوع لكن يحلج ·· ودكان حضرتك فين عشان ··

ــ فى الصاغة ··

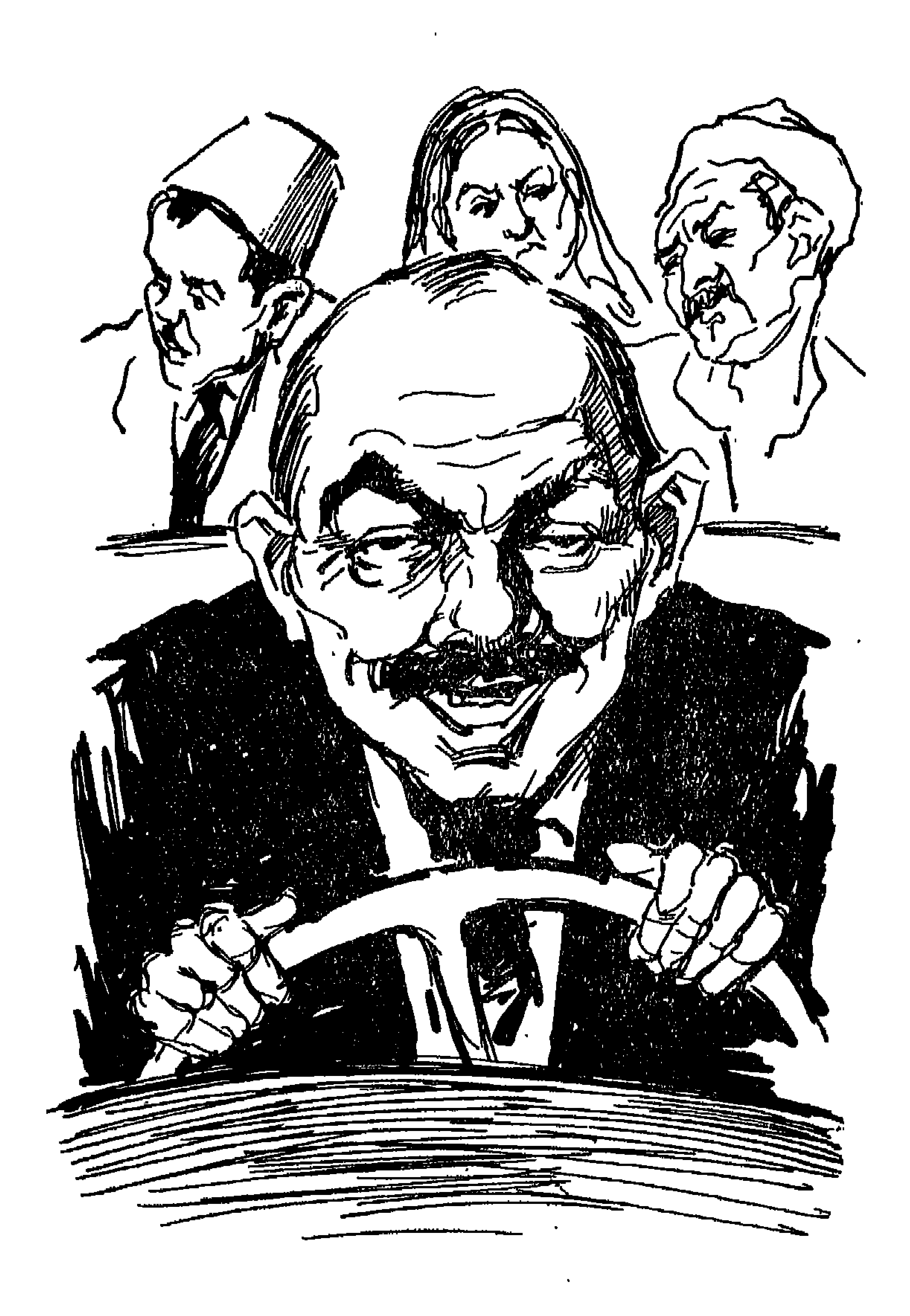
ــ فى الصاغة ·· لكن ده هناك حلاجين ياما جوى ··

ــ كل واحد رزقه على الله يابوى ··

ــ أيوه صدقت كل واحد رزقه على الله ··

وهنا كانت أواصر الصداقة قد توثقت بيننا الى حد أنه رفع الكلفة ·· فوضع على حجرى الشمامة التى يحملها ، فعل هذا بكل بساطة ··

ــ الشمام غالى اليومين دول ·· الشمامة دى اتسوقتها من الغورية ·· لكن غلبونى ·· حاكم ابن البلد اللى زى حالاتنــا



بيروح فى رجلين أولاد مصر ·· فى السوق اللى فات جبت شمامة من القللى بخمسة قروش ·· لكن شمامة ياسلام ·· كانت عايزه بقك ·· خشاف يا عمى ·· خشاف ·

وصمت قليلا ·· وضم أطراف جلبابه ، ثم تنهد فى ارتياح ووضع على حجرى صرة فيها بطاطس ·· وأخذ يتثاءب ·· وحينما بدأت ألفت نظره الى عدم اللياقة وعدم الأصول كان قد استغرق فى النوم !··

وسلمت أمرى لله ، واحتضنت البطاطس والشمامة ·· وملت برأسى الى الوراء ·· وبدأت أفكر فى التلغراف زيزى انتحرت ·· حالتها خطرة ·· احضر حالا ·· وألقت على صوت السائق يعوى أمام نقطة المرور ··

٣٧ فؤادية ثمانية راكب ··

وخرج علينا العسكرى بفانوس ·· وراح ينظر فى وجوهنا واحدا ·· واحدا ·· وفى أرض العربة ، وحينما تأكد أننا لا نحمل قنابل ·· أو مخدرات ·· أو قتيلا مقطعا فى شوال ·· غمغم وهو يرقص شنبه للسائق :

ــ قوم ··

ودفع السائق قدمه فى الماكينة ·· وانطلقت العربة تزحف ، وانطلق هو يشتم :

ــ جته داهية نطع ·· عامل صاحى أوى ·· عامل مفتح ·· وهو لابس نضارة زى قعر الكوباية ·

وانطلق يضحك ويضحك معه سبعة فلاحين بصوت يشبه كركرة العربة وهى تمرق كالسلحفاة فى الطريق ··

ولفحنى النسيم ·· فبدأت انعس ، ثم تيقظت فجأة على العربة تقف وأحد الركاب يصيح ·· نزلنى هنا ··

ــ نزلنى جار محطة قليوب ·· حلمك على ·· أيوه جزاك الله كل خير ·· اتفضل ·

ــ ايه ده شلن ·· انت راكب مرجيحة ·· دى عربية يا أبو أحمد ··

ــ مانى عارف انها عربية ·· لهو أنا تايه ··

ــ طب هات ريال ··

ـ ريال ·· ليه ريال ·· هو أنا رايح مالطه ؟ ··
ـ لا ·· انت رايح قبرص ·· ادفع الريال بقه ··
ـ مفيش معايا غير الشلن ·· أنا راجل على باب الله وسواج زيي زيك ··

ـ ياسلام ·· يعنى عاوز تركب مصلحة ·· الكلام دهتقوله في عربية أبوك ·· مش في عربيتى ··
ـ اختشى ولم لسانك أنا بقولك ··

ـ عين ايدك دى ·· شيلها لحسن أقطعها ··
وتحول الحديث الى صخب والتحام وروسيات وتقارع بالشماريخ · وشبكة من الأذرع الممدودة ·· وكتلة سوداءمن اللحم المتلاطم وصرخات مكتومة ··
سيبه يا جدع ·· اوعى دماغك ·· خد ·· يا خلق اتهدوا بالله ·· انتو يهود ·· العنوا الشيطان ·· حاياكل حقىالحرامى ·· أعمل له ايه ·· أضربلو سلام ·· آه يادراعى ·· دناباجرى على يتاما ياناس ·· انتو مفيش فى قلوبكم رحمة ·· ياجماعة انفضوا بقه كفاية عطلة · على يمين بالطلاق ياحيوان ماالا فاتح كرشك ·· سيبونى عليه يا خلق ·· سيبونى ··

وبعد نصف ساعة انقشع الغبار عن جلاليب ممزقة ·· وأنفاس لاهثة ·· وأنوف تقطر بالدم ·· وشتائم ·· ثمخرج شلن آخر من جيب الفلاح الذىتورمت ضبته ·· تناولهالسائق فى هدوء ، ثم بصق فى عرضالطريقودخل العربة ·· وضغط على البنزين وانطلقت الخنفساء الحديدية ·· وركابها يشتمون جميعا فى وقت واحد ·· وفى الطريق رجل وحيد يمسح دمه بكمه ويتأوه · وأنا جالس أفكر فى التلغراف وفى الفجر الذى بدأ ينبلج ·· وجارى يبحث عن الشمامة ··

واكتشف جارى أنالشمامةتحتالمقعد ·· فالتقطها ووضعها على حجره ثم وضعها على كتفه ·· ثم لمسها بخده ·· وقال فى حسرة ··
ـ ياه دى سخنة أوى ·· دى بقت نار يا عم ·· ايه ده

يا بلدياتى .. انت نمت .. خد كل عشان تصحصح وأعطانى قطعة من العجوة ..

وتناولت العـــجوة لا أعرف ماذا أفعل بهـــا وانطلق هو يثرثر ..

ـ دى عجوة اسكندرانى تنشف عضمك .. كل .. دنا كل يوم آكل وقه منها على الريق .. عشـــان كده عمرى مارحت لحكيم ، أصلى ما أصدقش فى الحكمة أبدا .. الحكمة ده كات زمان كات أيام فرعون .. كانوا بيداوا كل حاجة بالاعشاب .. انما دلوقت الأدوية كلها سكر وملون .. وضحك على العـــالم

وانتابه احساس بالألفة من جديد فوضع الشمامة على حجرى فى بساطة ومضى فى ثرثرته ..

ـ أصل العالم كفرت .. ومن كفرها ربنا سلطها على بعض .. اذا كانت الدنيا بتمطر فى الصيف .. فيه ايه بعد كده .. مش دى من شواهد القيامة دى ..

ونظر فى وجهى فى اعتداد وزهو .. كأنه فتح كنزا أووضع يده على سر خطير .. ثم عاوده الهدوء .. فمدد ســاقيه .. وألقى برأسه الى الوراء ونام ..

وارتفع الشخير من كل ركن فى العربة وبقيت أنا والسائق يقظانين .. السائق يشتم .. وأنا أفكر فى التلغراف ..

كنت أفكر فى كلام كثير أقوله لزيزى حينما ألقاها .. أقول لها : ان الانتحار جبن وهروب .. وانها انتحرت لأنها لم تستطع أن تقول .. لا .. أمام الناس .. فقالتها فى سرها .. احتجت بين جدران أربعة بشرب السم .. وضعت رأسها فى الرمل .. وقالت : أنا مظلومة .. جبن .. جبن .. جبن ان القتل والسرقة والدعارة أشرف فى نظرى من الانتحار . لأن المجرم يبدى رأيه .. أما الذى يعلق رأسه فى حبل فانسان مهزوم ..

لقد انتحرت زيزى لأنها تحبنى .. فكيف يكون هذا حبا

.. كيف تحبني وقد فشلت في حب نفسها .. لا .. لا هذا مستحيل ..

كنت أدفع قدمي في العربة . وكأني أستحثها على الاسراع .. كنت أريد أن أصل طنطا لأفرغ كل الكلام الذى يعتمل في قلبي .. وأعطى للمرأة الضعيفة درسا يقويها .. ولكن العربة أبت أن تسرع وانما توقفت .. ونزل السائق .. عند كشك صغير منخفض اختفى في داخله .. وغاب فترة كأنها دهر .. وتيقظ الركاب وسمعت أحدهم يقول :

ـ الراجل ده مفيش فايدة فيه .. مش حايبطل الأفيون أبدا ..

ـ مساكين سواقين الليل دول .. كلهم عندهم الداء ده .. ييجوا في نص السكة ويتلطعوا في القهاوى القريبة دى وياخدوا كيفهم .. أنا بقالى سنين وأنا بسافر في العربيات دى .. وكلهم على دى الحال ..

وخرج السائق من الكشك يتطوح ، ودخل الى العربة ، وانطلق بها ، وكان صامتا .. يهمهم بأغنية قديمة .. يعيد فيها ويزيد .. وقد فقد احساسه بالدنيا كلها .. وضغط على البنزين فطارت العربة كالحمامة ونحن نهتز في داخلها ، وتتقارع رؤوسنا ، وكأن كلا منا يقول للثاني في صحتك .. وكنا سعداء نحلم كلنا بطنطا التى أصبحت على مسيرة دقائق .. وأغلب الظن أن السائق كان يحلم معنا أيضا لأنه ترك عربته تهوى في مطب ، ثم تدور حول نفسها بعد ذلك عدة مرات وتستقر هادئة الى جوار شجرة .. وكنا جميعا في داخلها كتلة واحدة دامية ..

وأخرجونا على محفات .. ورأيت ساقي ممدودة على جبيرة طويلة ودماغي معصوبة .. أما جارى فكان سليما .. وكان يبحث عن الشمامة ..

وحينما فتحت عيني في المنزل .. كانت زيزى أمامي ..

صفراء ترتجف ، وفكرت فى الكلام الكثير الذى كان فى نيتى أن أقوله ·· ولكنى لم أجد له داعيا ، فجسمى كله كان يتكلم ·· كان يقول ان الحياة ليست عبثـــا ·· كان يقول للمرأة الواقفة أمامى :

ـ ها أنا مبذول فى سبيلك ·· محطم من أجلك ·· وأنت تحطمين نفسك بدون هدف ·· ألست خجلى ·

وقد فهمت المرأة كل شىء ·· فقبلت ســاقى وقبلت رأسى المعصوبة وبكت كالطفلة ··

أولادى



بلغت اليوم عامي الثمانين ‥ وابيضت فى رأسى آخرشعرة وسقط من فمي آخر ضرس وتحالفت عكازتى الواحدة بأخت ترقص معها فى تنقلاتي البطيئة من غرفة لأخرى ‥

وغزت وجهى قافلة جديدة من التجاعيد وركبت أنفى نظارتان واحتضن أذنى جهاز للصمم واستولى على عقلى البله ‥ وعلى جسدى الأوجاع ‥

يا للضرائب الباهظة ‥ لقد نسيت فى شبابى أن أدفع الايجار ‥ ايجار الجسم الذى أسكنه وأمرح فيه ‥ حتى واجهتنى فى شيخوختي القسيمة كلها دفعة واحدة ‥ وبدأت أدفع الديون من اللحم والدم ‥ واستقطرها من بقايا العقل الذى ذهب ‥ لأرى الشمس ‥ وهى تبزغ كل يوم من جديد ‥

حقا ‥ ما أجمل الشمس ‥ وهى تشرق من ناحية الأفق بينما أغرب أنا من الناحية الأخرى ‥ انه لمنظر جميل مؤثر ‥

انى لأنسى كل ذكرياتى وأنا أتأمل هذا المنظر ‥

وما أهمية ذكرياتى ‥ انى مازلت أعيش فى الحاضر ‥ فأنا أب لجيلين من الأحياء ‥ أب لحضارتين وفكرتين ومدنيتين ‥ أنا أشبه الشرفة تطل على التطور ‥ وعلى مجرى النهر العظيم ‥ نهر الحياة ‥ وكل عذابى أمام هذه الحقيقة لاشىء ‥

ما أبعد الفارق بين زمنى وبين هذه الأزمان ‥

كنت فى زمنى أصلى وأدخن الشيشة وألعب النرد وأنجب أولادا ‥ وكانت هذه هى كل الحياة ‥ أما الآن ‥ فالحياة هى أن تقرأ الكتب وتسمع الموسيقى وتطير حول العالم وتموت من أجل مبدأ ‥ وتكافح لتغير نفسك كل لحظة وكل ساعة ‥ فاذا لم تفعل هذا فأنت مومياء ‥ جثة محنطة فى تابوت ‥



انى احتاج لمترجم لأتفاهم مع أولادى ٠٠ فكل شيء قد تغير ٠٠ حتى المأكل والمشرب ٠٠ ومهما قلت فكلامى غير مفهوم ولغتى صينية ٠٠ وليس لى مكان الا أن أذهب الى فراشي وأعصب رأسي بمنديل قديم وأنادى على امرأتى لتدلك مفاصلى وتملأ ابريقى بالقهوة ٠٠ ثم أضع المصحف في حجرى وأمضى فى القراءة ٠٠ وأنا فى واد ٠٠ وأولادى الملاعين فى واد آخر ٠٠

أين الحقيقة اذن ٠٠ اذا كانت القيم تتغير بهذه السرعة ٠٠ وما كان جمالا منذ أعوام يغدو قبحا وماكان فجرا وتهتكا يغدو عفة واستقامة ٠٠

لقد كان خد زوجتى اذا بان فهى الطامة الكبرى ٠٠ أما الآن فخد ابنتى وثغرها ونحرها وصدرها وساقها ٠٠ كل هذا وأكثر أصبح حلا مستباحا لكل من له عينان ٠٠ وهى تتعلم الجبر والحساب ولا تعرف كيف تسلق بيضة ٠٠ وتلم بمذاهب السياسة والفلسفة الماما بالمجوهرات والروائح العطرية ٠٠ وهى شقية بعد كل هذا العلم وكل هذه الحرية ٠٠

أين حكمة التطور اذن ٠٠ اذا كنا نسير الى حياة أشقى ٠٠

لقد قال ابنى من سنوات ٠٠ أريد أن أتزوج ٠٠ أحقا ياولدى يالسعادتى اذن ٠٠ انك يجب أن تتزوج ٠٠ هذا صحيح ٠٠ وعندى لك زوجة لايحلم بها صعلوك مثلك ٠٠ زوجة لم ير وجهها الشمس ٠٠ ولم تخط خطوة خارج بابها ٠٠ ولا تعرف من أين يبدأ الشارع الذى تسكن فيه ولا الى أين ينتهى ٠٠ ولم تقرأ كتابا ٠٠ ولم ينزلق قدمها الى ملهى ٠٠ ولم يذق لسانها قطرة خمر ٠٠ ولم تنطق عن الهوى ٠٠ جوهرة ياصعلوك ٠٠ جوهرة مكنونة في قوقعة من الذهب ٠٠ لها ارث يشترى عائلتك ويبيعها ٠٠ ولها وجه يزرى بالقمر ٠٠ وجسم كالزبد ٠٠ وروح كالعنبر ٠٠ آه ٠٠ من اللحاظ ٠٠ آه ٠٠ لولا ٠٠ أوجاع المفاصل ٠٠ لتزوجت من أمها ياكلب ٠٠

ولكنى الآن سأقطع نصف المرام وأزوج ابنى من بنتها ٠٠ وأحمد الله ٠٠

كنت أقول هذا وأنا نشوان ولكن ابنى كان باردا جامدا كمن

يقف تحت دوش .. وما لبث أن قال .. أنه يعرف .. من أعني .. وأنه لا يرضى بها زوجة .. ولو شنقوه .. وانه سيتزوج فلانة .. زميلته فى الدراسة .. وهنا لم أستطع كبح نفسى .. وانفجرت قائلا .. يا شوارعى .. يارقيع .. أقسم بالله العظيم انى لحارمك من الارث اذا أنت تزوجت منها ولم تستمع الى نصحى واختيارى ٠

واعترف هنا ان كلمة الارث قد هزته وأثبتت انها سلاح نافع ماض فى كل الأجيال .. ولغة فصيحة يرتجف لها الصينى والمصرى على السواء فبدأ صاحبنا يرق ويلين ، ويتمسح ويستغفر ويضرب على وتر الرحمة والأبوة والعصر الذى تغير .. ويحاضرنى فى فلسفة الزواج بكلام طويل .. طويل .. أظن أنه قرأه فى رواية جيب .. أو ما أشبه ..

قال ان الزواج ليس شركة مساهمة .. وانما هو تفاهم وحب وانسجام وتلاق فى المشارب وفى الاهواء .. ولا يمكن لاثنين أن يعيشا تحت سقف واحد الا اذا تحابا وتفاهما وتلاقيا فى الأمزجة وسكنت قلبيهما نفس العواطف .. وعاشت فى عقليهما نفس الأفكار .. وان الأنبياء اذا سكنوا تحت سقف واحد فأنهم حتما سيقتتلون لأن كلا منهم يمثل عصرا وفكرة وعقيدة .. هذا مع الأنبياء .. فما بال البشر .. والمسألة بعد كل هذا ليست مسألة جمال ومال .. فهذه وسائل وأسلحة قد تقتل أحيانا .. وانما العبرة بالعقل الذى يستعمل هذه الوسائل ويحدد لها الغايات .. ثم قال انه يحترمنى ويحبنى ويجلنى فلا يجب أن يدفع ثمن هذا الحب من سعادته وحياته .. وان أبوتى الرحيمة ستأبى على هذه التضحية ..

واعترف مرة أخرى ان هذا المقطع من روايات الجيب قد هزنى .. وأنا أب ضعيف ككل الآباء تهمنى سعادة أولادى .. ولكن هذا لم يمنعنى من أن أدلى بدلوى فى فلسفة الزواج .. وأقول رأيى الذى تعلمته فى الحياة لا فى الكتب ..

قلت ان الزواج هو طبخ وغسيل صحون وتربية أطفال وتدبير بيت .. وهى مواهب لاتتوفر الا لامرأة بيت نشأت فى

البيت لا في الشوارع وقاعات المحاضرات ٠٠ وان الجهل بعلم الجغرافيا واللوغارتيمات لايمكن أن يؤدى الى فشل الزوجية ٠٠ فسواء كانت هولندا على بحر البلطيق أو على البحر الميت فالسبانخ سوف تنضج ٠٠ والطفل سيحصل على حقه من الرضاعة ٠٠ اذا كانت ربة البيت تعرف كيف تنضج السبانخ وكيف ترضع الطفل ٠٠ أما القانون والفلسفة والكتب والصحف فهى سبيل الجدل والخلف والعصيان والغرور ٠٠ وهى ابليس الذى يصنع فى البيت رأيين فى الوقت الذى يجب أن يكون فيه رأى واحد وسيدين فى الوقت الذى يجب أن يكون فيه سيد واحد ٠٠ والمرأة التى تعيش بين ألف رجل ستجد حتما ان عاجلا أو آجلا رجلا آخر غير زوجها تعجب به وتحبه ٠٠

ولست انت ملاكا لتجمع فى شخصك كل ماتنشده المرأة ٠٠ أما اتفاق المشارب والاهواء وتلاقى الأرواح ٠٠ الى آخر هذه التخاريف الروائية فالطريق الوحيد الى تنميتها هو العشرة ٠٠ العشرة الطويلة هى التى توفق بين الأمزجة والأرواح والنفوس ٠٠ وتصنع معجزة الحب ٠٠ التى تدير الرؤوس ٠٠

وشعرت بعد محاضرتى بالاقتناع والاصرار فعاد الى غضبى وانفجرت قائلا ٠٠ والآن تأكد يا كلب ٠٠ انى لا أحب وجع الرأس ولن أعمد الى تدليلك ٠٠ وانك محروم من الميراث اذا لم تعمل بنصحى واختيارى ٠

ولكن المنظر مالبث أن تحول الى مناحة ٠٠ وبكى طفلى وتشنج وأسرعت الى نجدته الأم والخالة وجيش الاقارب الذين وقفوا يلوحون فى وجهى بأذرعهم ٠٠ ويقولون ٠٠ انى أريد أن أعيش زمنى وزمن غيرى ٠٠ وانى وحش كاسر ٠٠ وآدمى لا رحمة فى قلبه ٠٠

ونزلت على رأى الأغلبية ٠٠ وتزوج ابنى من الصايعه بنت المدارس ٠٠ ولكن الطريف حقا ٠٠ انه طلقها بعد ستة شهور من العشرة الزوجية ٠٠ وجاء يقدم الى قرابين التوبة ٠٠ ويتوسل الى أن أنصحه ، وأختار له حياته وزوجته ٠٠ ولكنى كنت عاقلا هذه المرة ٠٠ فلم أختر له شيئا ٠٠ وتركته يأكل

بعضه .. لعلمي بأنه اذا تزوج من المرأة التى اخترتها له .. فسيطلقها هى الأخرى لأن المشكلة هى مشكلة الجيل القلق كله .. وليست مشكلتة وحده .. هى مشكلة الجيل الذى حطم الأصنام القديمة .. ولم يصنع بدلها أصناما جديدة .. ولا حياة فى نظرى بلا أصنام ..

يجب أن تكون هناك آلهة وعبادات وأصـــنام حتى تلتقى القلوب المختلفة المتباعدة على عتبات واحدة فى الرأى والعقيدة

أما ابنى الثانى .. عفا الله عنه .. فهو آلة من آلات الصداع فى البيت .. لا يكف عن الهذيان بأفكار لا حصر لها .. فهو يتحدث عن الشعب وحكم الشعب وفى رأيه اننا يجب أن نعبد الذهب .. لأن الذهب هو القوة التى صنعت الفن .. والعقائد .. وحكمت تطور التاريخ ..

عاش الدين لأنه فتح أبواب جنته للفقراء والشحاذين .. حيث أغرقهم لآذانهم فى الخبز والسمن والعسل والذهب ..

وبدأ الفن حياته خادما للدين ، ثم خدم القصور ، ثم تحول الى خدمة الشعب ، وكان يتبع فى كل هذه الرحلة مكان رزقه فيخدم الدين حينما كان الدين ينفق عليه ويخدم الصعاليك حينما يصـــبح الصـــعاليك هم مستهلكى الصحف والمجلات الدورية ..

.. الذهب يا سيدى الوالد .. الذهب هو السلام والمحبة والسعادة الروحية .. ولم يكن هناك مايملؤنى غيظا وسخطا أكثر من هذا الهذيان .. فكنت أنفجر فى هذا الكلب عابد المال قائلا : ان كفرة قريش كانوا أذكى عقلا حينما صنعوا تماثيل من الحجارة وعبدوها .. فهذا أحسن من تقديس المال وعبادة الملذات ..

وان خضوع الانسان لضرورة معدته لا يفسر كل شىء فى التاريخ .. والا فكيف ظفر بالمدنيات والحضارات أنبياء وقادة عرف عنهم الشبع والغنى عن ضرورات الجسد ..

ثم هناك يا كلب .. اله .. خلقنى .. وخلقك .. وخلق

التاريخ والفن والدين والذهب ·· وهذا الهذيان الذى تصدع به رأسى ·· ولكن كل هذا الجدل ·· لم يعد بذى جدوى ·· لقد انتهى كل شيء ·· وذهب ولدى الى السجن ·· لأنه كثير الهذيان ·· كثير الأفكار ·· وفي زمنى كان يعيش الناس فى سلام ومحبة وسعادة بدون حاجة الى أفكار ·· وأنا لا أدرى ما لزوم الأفكار لسعادة الانسان وحيـــاته ·· وماذا يريد الانسان أكثر من أن يأكل ويشرب ويتزوج ويلعب النرد ، وينجب أولادا ··

أما ابنى الثالث فهو لا يريد أن يتزوج ولا يريد أن يفكر ، وانما هو يعكف على الخمر والقمار والنسوة الساقطات ويسهر حتى الفجر كل ليلة وينام حتى الظهر · وعبثا ذهبت محاولاتى فى التهديد والوعيد والطرد والضرب والصفع والبكاء والتوسل فى أن يرحم الابن شيخوخة أبيه وأمه ، ويرحم نفسه ويرحم عائلته ··

ان له رأيا آخر فى الحياة ·· فالحياة صدفة بلا معنى ·· الانســـــان ينمو من طفل الى صبى الى شاب الى شـــــيخ ·· حنكته التجارب ، ثم يموت ويتحول الى حفنة من تراب ·· كأنه نكتة سخيفة ومهزلة ·· ما حكمة البراكين والزلازل ، والأوبئة والحروب ·· ما حكمة السم فى الثعبان والعطر فى الزهرة ·· وما معنى الشر والموت والظلم والفقر والمرض ·· وأين العدالة تأخذ الطغاة أحيانا بالأحضان والقبل وتأخذ الأطهار بالحرق والتشريد وما ذنب الابن يدفع ثمن زلات أبيه فيضرس اذا أكل أبوه الحصرم ، ويموت بالشلل لأنه كان ثمرة الفحش والزنا ·· ما معنى الأطفال الأبرياء يعضهم الجوع ·· ويهزأهم البرد وتغرقهم السيول ·· ان الحياة فوضى ·· والمثل الأعلى للانسان هو أن يقتل نفسه ·· أن ينتقم لفشل جنسه فى تحقيق العدالة والحب والخير ·· المثل الأعلى للانسان هو الغيبوبة يصل اليها بالخمر والمخدرات ·· المثل الأعلى هو لذة الجنس يذوب فى حريقهـــا ·· أو هاوية الافلاس يتبدد فى حضيضها ·· ولا شيء غير هذا ··

لقد قلت له فى احد المرات وأنا أرتجف من الغضب وألوح بذراعى ·· ان المهزلة والنكتة السخيفة ·· والفوضى ·· والشر ·· والسم في الثعبان هو كلامك ·· هو وجود مثلك على قيد الحياة يزنى بالخير ويفسق بالطهارة ويدنس ثقة الناس بالشك وايمانهم بالالحاد ·· فالحياة ليست صدفة بلا معنى ، وليست شهوة عمياء بلا هدف ·· والحروب والزلازل والبراكين ليست بلا حكمة ·· وانما هى الحكمة العالية والتدبير الذى لا يعلى عليه ·· فالحياة بلا شر حياة ميتة بلا هدف بلا حركة بلا غاية ·· وانما نعرف الخير بمعاناة الشر ونعرف الطهارة بمغالبة الفساد ·· وانما الشر والتخبط والفوضى والمرض هى ثمار الحرية ، والحرية هبة أعظم من أن ترد فى سبيل الأمان والصحة والسعادة ··

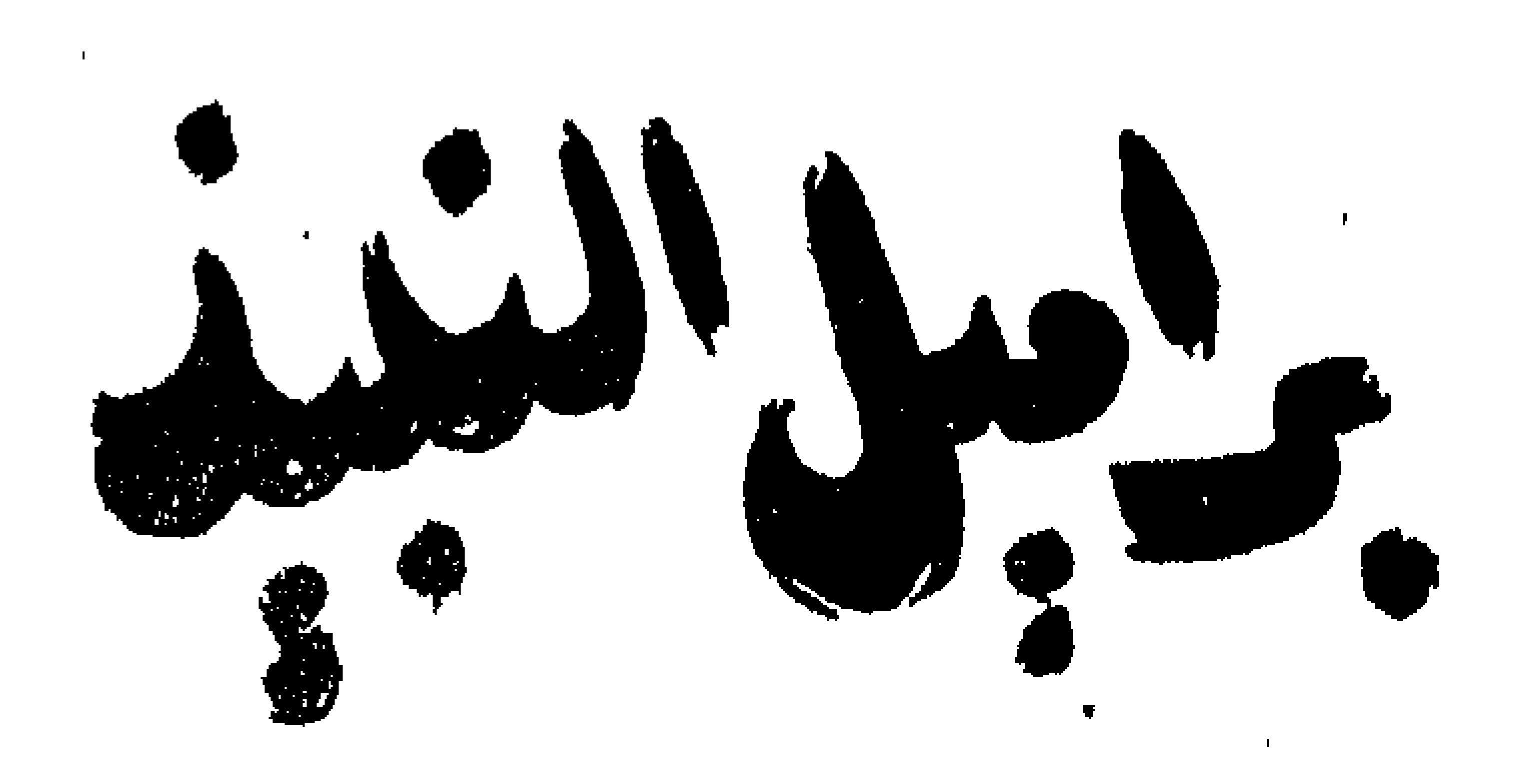
كنت أقول هذا وأنا أرتجف ·· أرتجف بحقيقة أدركتها من الحياة ·· ولكن هذه الحقيقة ذهبت أدراج الرياح ·· غرقت فى كؤوس الخمر وفى أحضان النساء وبموائد القمار ·· ولم يجد كلامي فتيلا ·· ولم يتيقظ على هذا الغضب الا حفيدى الصغير ··

فأخرج رأسه كالجرذ من تحت اللحاف ·· ونظر الى نظرة من لا يفهم لكل هذا الغضب معنى ·· ثم لجأ الى شيء يكوره فى أصابعه ·· ثم قذفنى بهذا الشيء وهو يضحك فى براءة ·· فاذا كرة من الورق تستقر فى قفاى ·· وأفرغ غضبى كله دفعة واحدة ·· وأحسست أنه لا فائدة من الكلام فكل جيل من أجيالنا الثلاثة يغنى فى واديه ·· وكل ما ينتج من ساعة من الكلام هى كرة من الورق تطير من الحفيد لتستقر فى قفا الجد التعس وتضع حدا لهذيانه ··

مساكين أولادى ·· ان لهم أمثالا فى كل بيت وكل عائلة لأنهم صورة لحالة اجتماعية واحدة نمر بها جميعا ··فليس

بين الأجيال المتتالية هدنة حتى ولو كانت هذه الأجيال آباء وأبناء .. وانما هناك المعارك الدامية والتطور الذى لا يرحم وبين الجيل والجيل تتهدم المجتمعات لتبنى من جديد والويل كل الويل للأفراد القلائل .. الذين يقفون على المنعطفات فى فترات الانتقال بين الأجيال والأجيال .. فهم الذين يتلقون الأنقاض على رءوسهم .. وقد تجمدوا من الذهول .. كل منهم أمام صنمه الذى يعبده ويصلى من أجله .. وكل منهم أمام بقايا القيم البالية والعقائد المهلهلة يشك فى كل شىء حتى فى وجوده ..

مساكين .. مساكين أولادى ..


براميل النبيذ



على ناصية ثلاثة شوارع ، وفى ميدان كبير معروف تقع بقالة كبيرة يعرفها رواد الليل بأنها آخر بقعة مضيئة تنطفىء فى القاهرة ويمرون عليها فى ليالى الصفاء ليمضوا فيها دقائق ثم يخرجون وتحت ابطهم لفات من الورق مثقلة بالسجق ، واللحم البارد والزجاجات الطويلة الحمراء .. تلك هى بقالة مخالى التى ينفرد بين مئات البقالات التى تمتد على طول الميدان بأنها تكاد تحتوى على كل شىء .. فأنت تجد فيها الى جانب الزيتون والجبن والشاى .. الليف والمغات والويسكى .. والاسبرين وورق اليانصيب حتى الدجاج المذبوح .. هذا عدا واجهة أنيقة عند الباب تتلألأ فيها زجاجات من كل الجنسيات من الزبيب القبرصى .. الى الشمبانيا الفرنسية المعتقة ..

ولعل أغرب ما تضم هذه البقالة بين بضائعها هو مخالى بابا ينى صاحبها ومديرها .. فهذا الانسان القصير البطين ذو الرأس المكورة بضاعة فريدة .. بضاعة خليط من كل الجنسيات .. فأنت لا تدرى هل هو شامى أو أرمنى أو يونانى أو مالطى أو ايرانى .. وكل ما تعرفه أنه أمامك مصرى .. وأمام ميخاليدس يونانى وأمام كولستانا ايرانى وأمام ينى أرمنى .. وهو يدير كل هذه السفارات العالمية المتجمعة فى شخصيته الفذة بلسان ذلق يتحدث بأكثر من خمس لغات فى فصاحة وطلاقة وبلا تلعثم .. فيخيل اليك أنه درس فى جامعات الدنيا ، وهو لم يدرس شيئا ولا يعرف من هذه اللغات الا الكلمات القليلة التى تخص المكرونة والسردين وتتناول البيع والشراء والتعامل والمجاملات الرقيقة ..

وشىء آخر يخلق بينه وبين البضاعة التى يبيعها صلة وثيقة هو شكله .. رأسه المكور الأصلع الذى يبدو فى لون الجبن الفلمنك وعيناه الخضراوان اللتان تشبهان زيتونتين غضتين ، وأنفه الطويل الذى يشبه السجق ، وجبهته التى ذهب لونها



من البرص .. فأصبحت كشريحة الخنزير وفمه العريض الذى استطال من كثرة الابتسام المصطنع للزبائن .. فأصبح كفم الضفدعة وجسمه السمين القصير الذى يشبه برميل الخل القبرصى ..

ولكن مخالى بالرغم من هذا الشبه الوثيق بينه وبين بضاعته انسان مثلى ومثلك ، وهو فوق هذا جنتلمان ، رقيق الحاشية دائم الابتسام يبتسم لكل من يلقاه طالما كان من زبائنه ، ويقدم كرسيا لأصدقائه الذين يقرضهم بالربا آخر الشهر ، ويمتص ايراداتهم فى أوله .. واذا كنت ممن يشترون منه حوائجهم ومررت عليه .. فانه لا يدعك تمر فى سلام ، بل يستقبلك بزوبعة من التحيات والبسمات .. ثم يميل على أذنك ويهمس بأن عنده اليوم نوعا من الجبن أعظم من شستر وفلمنك وهنيكل وان ما عليك الا أن تسير بضع خطوات وترفع هذا الغطاء .. وتذوق قطعة من هذا الشهد الأبيض حتى تؤمن بأن الحياة جديرة حقا بأن تحياها ، يقول هذا ويجرك من يدك ويزيح غطاء البرميل الصغير ويقطع بطرف سكينه قطعة صغيرة مربعة من الجبن يقدمها الى فمك ، ثم يفتح فمه على آخره وأنت تتذوقها بلسانك ويهتف :

ـ فين دى من جبنة امبارح .. السما من الأرض يا حبيبى .. أنا جايبه مخصوص علشانك ..

فلا يسعك حتى لا تفضح غباءك وجهلك فى فن التذوق الا أن تقول : صحيح .. صحيح يا خواجا السما من الأرض .. فيفرك يديه ويتناول ورقة كبيرة وهو يقول : كم أقة .. أقتين .. ثلاثة .. ويقطع بسكينه ولا ينتظر ترددك ، وهكذا تجد نفسك بين طرفة عين وانتباهتها فى الطريق وفى يدك أقتان من نفس الجبن الذى اشتريته فى اليوم السابق .. وأنت لا تدرى كيف مثل عليك مخالى هذه الكذبة الكبيرة ونشلك هذا النشل الرشيق .. وهذه صناعة يتقنها مخالى الى أبعد الحدود .. صناعة تفريغ جيوب الناس فى جيوبه .. بالحلال .

وفلسفة مخالى فى الحياة بسيطة .. ومستقيمة .. فهو

يقول ان كل شيء فى الدنيا يشترى بالمـــال ·· ليس فقط المكرونة والسردين ·· بل أيضا المسكن والملبس والزوجة ·· والأولاد والصحة والراحة ·· حتى الوقت له فى هذه الدنيا ثمن ·· فاذا أردت أن تعيش وتستكمل لحياتك أسبابها ·· فابحث عن المال ، وهو منطق سليم لاعوج فيه يضب حياة صاحبه فى قالب سهل مستقيم لاعوج فيه أيضا ويحـــدد له وسائله وغاياته ··

وقد ورث مخالى هذه الفلسفة فى دمه من أجداده العظام من أسرة بابا ينى العريقة ··

وأول أجداد هذه الأسرة ·· بابا ينى الكبير ·· جاء الى مصر من اليونان فى ثورة الموره ·· هكذا يقول مخالى ·· هرب

وتسلل خفية الى سفينة تشرع قلاعها الى مصر . ودفع ثمن رحلته خدمات للبحارة ·· خدمات من كل نوع حتى مســـح الأحذية ·· وحينما وضع قدمه على أرض مصر لم يكن يملك عدا ذراعيه مليما واحدا ·· ولكنهما كانتـا ثروة كافية ·· سرعان ما بادر الى استغلالهما ·· فهو يعمل جرسونا وبائع يانصيب وعاملا فى مصنع للكبريت وموردا فى مصنع للأزرار وهو فى اثناء ذلك يضع القرش على القرش والمليم على المليم ويختزن فى رأسه تجارب الحياة ، ثم يفتح فى النهاية مقهى صغيرا يزوده بأسباب الراحة والرفاهية ·· فقـد أدرك أنه يعيش فى شعب من الكسالى ·· المقهى فى حياته ضرورة من الضرورات التى يسعى اليها قبل لقمة الخبز .

ومن أرباح هـــذا المقهى يشـــترى أسرة وأولادا وتتـكاثر الأسرة من تلقاء ذاتها ·· فتنسل له أحفادا وأحفادا واذا بأسرة بابا ينى قد أصبحت فى النهاية كأخطبوط الماء لهـــا عشرات الأذرع ممتدة فى عشرات الأماكن ··

فكرياكو فى الاسكندرية يملك كازينو على البحر ، وينى فى المنصورة صاحب بار ·· وبنايوتى فى دمياط يملك مصنعا للأحذية ، وستاورو فى طنطا يملك محلا للساندويتش ومخالى فى القاهرة يملك بقالة كبيرة ·· وكلهم سعداء ·· لهم زوجات

وأولاد يمدون الأخطبوط بأذرع جديدة ..

وليس مخالى هو الوحيد فى أسرته الذى يكد ويكدح .. فزوجته كاترين تدير مشغلا للتريكو ، وابنته ستلا تعمل فى مدرسة ليلية وتقف على طاولة العطور فى محل شملا ، وتعطى دروسا فى البيانو وتكتب على الآلة الكاتبة فى أوقات فراغها وتجمع من نشاطها ايرادا شهريا يربو على ايراد وزير ..

تذكر هذا للحاج أحمد أحد أبناء بلدتك البلهاء .. فيمط شفتيه ويغمغم .. وايه يعنى .. ده راجل درزى حشو جهنم .. وده يتعمله حساب ده .. يقول هذا الحاج أحمد الذى يسكن فى حارة البرابرة فى جحر تعاف سكناه الكلاب مع جيش من الحشرات المستأنسة كالنمل والصراصير والبق .. والقمل .. ويعول أسرة من المرضى وذوى العاهات تبدأ بأمه المشلولة ، وأبيه المريض بالروماتزم والزلال .. وتنتهى بابنه المريض بالجرب والقراع ، وطفله الوليد الذى دفنه منذ أيام ، وتحار كيف ترد على مثل هذا الآدمى ، وأغلب الظن أنك تسكت وتقول فى نفسك .. حقا ان مخالى لم يخطىء حينما تخصص فى صناعة تفريغ جيوب هؤلاء المغفلين فى جيبه .. وهل يخطىء هذا الذى يرى حمارا فى الطريق فيمتطيه ويهز ساقيه ؟ !! ..

لكن مالنا اليوم وكل هذا .. ان مخالى اليوم ليس فى الحالة التى يحسد عليها .. انه ليتمنى لو أصبح الحاج أحمد أو حمار الحاج أحمد .. أو شيئا .. أى شىء غير مخالى التعس العاثر الحظ ..

لقد تهدم الصرح الذى بناه كله ، وزلزلت الحياة التى شيدها لبنة،لبنةمن كدهوعرقه..لا.. لم تمت زوجته بالطاعون ولا أمه بالسرطان . بل حدث ما هو أخطر من هذا وأخطر من البراكين والزلازل مجتمعة .. فقد سقط سقف المخزن الذى يحفظ فيه الخمور .. فأريقت ثلاثة براميل من النبيذ وبضع عشرات من زجاجات الويسكى ..

ثلاثة براميل من النبيذ .. من دمه أريقت على الأرض ..

شربها التراب وثمل بها .. انه ليود لو أنه فقد ثلاثة من أصابعه أو ثلاثة من أولاده أو فقد أهله جميعا ، ولم يفقد برميلا واحدا ..

ثلاثة براميل من النبيذ يا مخالى .. يهمس الرجل الى نفسه وهو يذرع البقالة طولا وعرضا ويتلفت حوله بعينين كعينى الفأر .. ثلاثة براميل من النبيذ .. ويعد على أصابعه .. مائتى جنيه .. مائتى فرحة وابتسامة .. مائتى خفقة قلب . تذهب الى الأرض .. الى العدم .. ثلاثة براميل من النبيذ يا مخالى يا حفيد بابا ينى الذى كان يمسح الأحذية ويضع المليم على المليم .. ثم ينظر الى عماله ويسبهم برطانة مالطية خالصة ، ويحتقن وجهه من الغيظ حتى يصبح فى لون صندوق الكوكاكولا الجاثم بالباب ..

كيف أعوض هذه الخسارة .. كيف أعوض هذا الدم المراق أطلق زوجتى وأصوم وأغش الخمور وأخصم نصف مرتبات العمال ، وأرفع الأسعار وأسرق وأحتال .. ان كل هذا أفعله كل هذا أفعله .. كيف أعوض خسارتى .. ويسرع هابطا الى المخزن ويقف يتأمل ترع الخمر التى تملأ الأرض فى حسرة وهو يصر على أسنانه ويود لو ركع على ركبتيه ورشف هذا الدم الأحمر قطرة قطرة ..

ان سقف المخزن قديم متهالك وقد سقط من ثقل العمال وهم يروحون ويغدون بأجسادهم السمينة المتخمة بجبنى .. وزيتونى .. كان يجب أن أشد الى هذا السقف عوارض من حديد وأضع البراميل تحت الأركان ، وأحفظ الزجاجات فى جوالات من القش وأتوقى المفاجآت بسوء الظن .. وأضع فى حسابى أن القدر يتغفلنى ويتآمر على بلاهتى ..

لقد كان أبى يقول أن الناس واحد من اثنين .. أما لص ، أو مغفل .. والأفضل أن يكون الانسان لصا .. وكان بمهارته يبيع الجوارب الرخيصة بأضعاف أثمانها بعد أن يزينها بالأكاذيب .. ومن هذه الأكاذيب بنيت بقالتى .. ولو كان معتوها مثلى يفقد ثلاثة براميل من النبيذ كل يوم لمات جوعا .

ثلاثة براميل من النبيذ يا مخالى ·· ترى ماذا يقول بابايني اذا علم بهذه النكبة ·· انه يسب ويلعن عدة أيام متوالية اذا كسرت أمي زجاجة ماء ·· أمي الكليلة البصر ·· ويرتفع ضغط دمه ·· ويلزم الفراش اذا كسر لوح من الزجاج ، أو مصباح كهربائى ·· فماذا يقول حينما يعلم أن ثلاثة براميل ·· يا الهى ··

وخرج مخالى من المخزن الى البقالة ، ثم عاد من البقالة الى المخزن ، ثم عاد فترك المخزن وفر الى البقالة وظل يتردد من مكان الى آخر حتى حل ميعاد عودته الى البيت ·· فغادر بقالته وسار فى الطريق وقد دفن يديه فى جيبه ·· وراح يحملق في وجوه المارة ويهمس ·· ليس هناك من يشاركنى أحزانى ·· كلهم سعداء يهرولون فى الطريق بقلوب خالية ·· ليس فيهم من فقد برميلا من النبيذ ·· ليس فيهم أحمق واحد مثلى تهدم على رأسه سقف قديم ·· كلهم أذكياء يلتمع الذكاء فى عيونهم ··

كان يجب أن أصلح السقف وأسد شقوقه وأقتل العناكب التى تعشش فيه وأحتاط للبلاء قبل نزوله وأترك الأخطاء يقع فيها غيرى ··

ثلاثة براميل ··

ونظر مخالى الى ترام قد صعد الغوغاء على سطحه ، وأخذوا يتصايحون بالهتافات ويلوحون بعصيهم فى الهواء ·· فلم يبد عليه أنه أحس بشيء ·· ما شأنه بالسياسة · ان كل الاحزاب تشرب النبيذ وكل الحكومات تأكل الجبن وتدفع الأسعار ، وهذا كل ما يعنيه ··

واذا كانت له شكوى يرفعها الى الحكومة ·· فهى هذه المخازن المتداعية التى تهملها مصلحة التنظيم وتتركها تتهدم على براميل النبيذ ··

نعم ·· ثلاثة براميل من النبيذ تسببت فى تلفها الحكومة ·

ونظر فى غيظ الى عربات الترام ، ثم عاد يفكر فى مأساته من جديد ··

ان بابا ينى سيموت بالقلب اذا علم بالخبر .. سـيصاب بالفالج ، وتنفجر شرايين رأسه ، واذا أنكرت الحقيقة .. فانه سيعرفها ، واذا قلتها بالتدريج .. فلن يسلم من وقعها .. وكاترين وستلا وميشو وكل هؤلاء سيرمونني بالغفلة والغباء ويقولون أن مخالى الأبله بدد ثروة الأسرة ..

مائتا جنيه كان من الممكن أن أضيف بهـا رفا جديدا الى بقالتى ، أو أضعها فى البنك اليونانى ، أو أرصدها للتأمين على الحياة فى شركة أثينا أو أعطيها دوطة لابنتى ستلا أو أشترى بها عربة لتوريد الطلبات الى المنازل أو أعطيها رأس مال لميشو ليبدأ بها حياته .. أو حتى أنفقها .. أنفقها على نفسى .. أما أن تضيع هكذا على الأرض فهذه نكبة .. مائتا جنيه تضيع فى لحظة وأنا أبيع السيجارة فى ربع ساعة لأكسب نصف مليم وأرشى كل فئة من بضاعتى ـ حتى طابع البريد ـ بهالة من الابتسامات والنكات والثرثرة المسلية لأكسب زبونا قد يكون مفلسا ، واستقطر حياتى بالعنت من جيوب خاوية ..

مائتا جنيه .. انى أشترى بها ذمة رجل شريف ورقبة رجل حر .. انى أستأجر نصف حياة مخالى ببضعة قروش وعمالى يبيعون ذمتهم للزبائن مجانا .. والزبائن تدفع ثمن هذا الدجل من جيوبها أضعاف ثمن البضاعة .. ان مائتى جنيه تسـير أمة ..

لقد بدأت حياتى كلها بخمسة جنيهات .. اشتريت عـدة ياردات من القماش وسرت أنادى عليها فى دروب بولاق .. أصعد الى الدور الخامس لأبيع مترا من البفتة .. وأهبط الى البدروم لأبيع منديلا من الدمور .. فلما أصبح ايرادى ستة جنيهات .. اشتريت حزمة من أوراق اليانصيب وشخاشيخ ونظارات .. فلما قفز ايرادى الى عشرة .. تزوجت وكسبت من الزواج مائة جنيه دوطة .. ففتحت محلا لبيع السجائر وأنجبت ثلاثة أولاد رفعوا رأس مالى الى مائتى جنيه .. ففتحت بقالة صغيرة كبرت مع الأيام حتى دخلها الويسكى والروم والنبيذ .. ففتحت مخزنا ، ورصيدا فى البنك .. وأمنت على

حياتى المشئومة ، وكل هذا من خمسة جنيهات ••

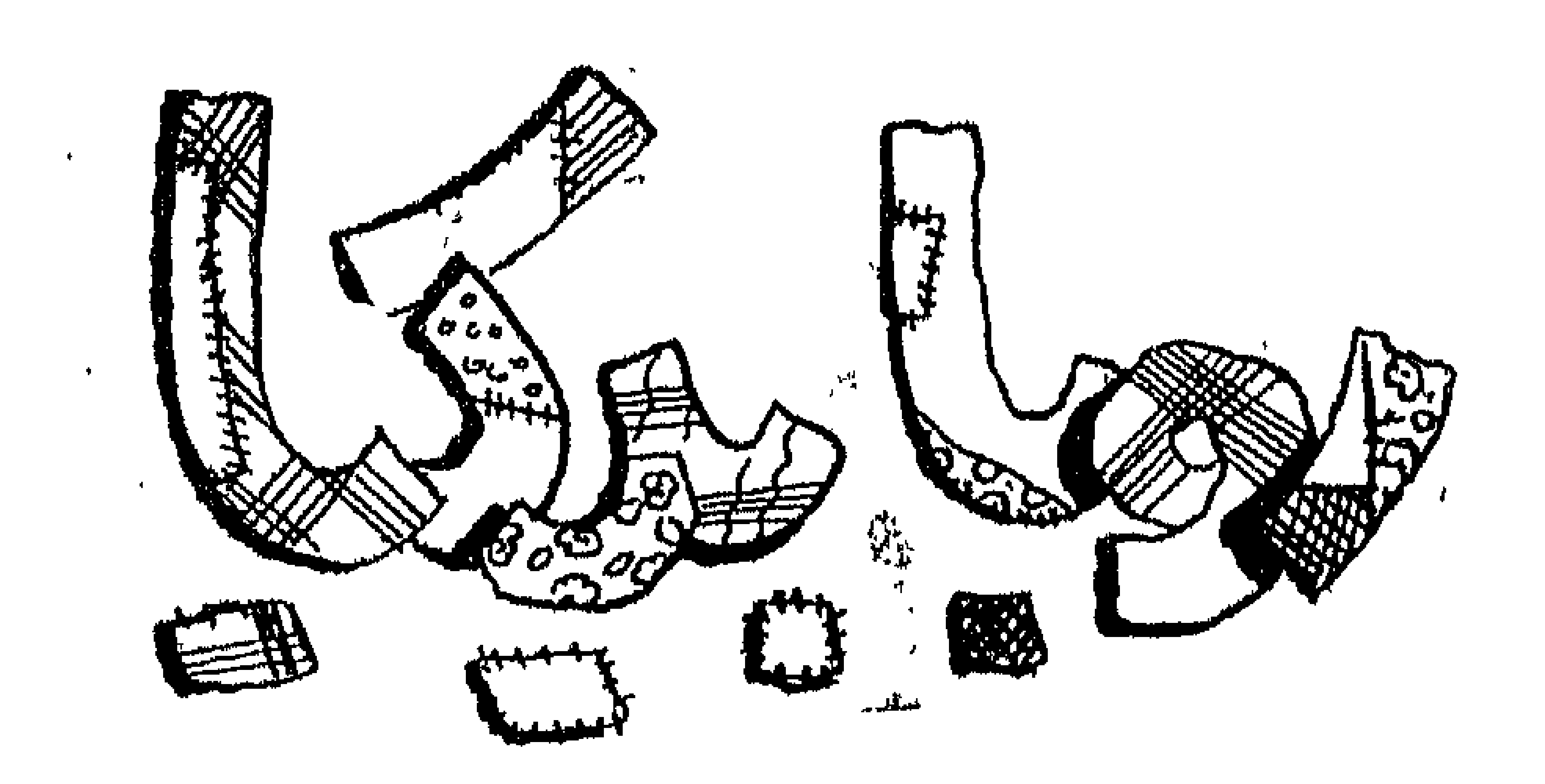
فماذا كان يحدث لو أني بدأت بمائتى جنيه •• أنى كنت أصبح كوتسيكا •• كوتسيكا ••

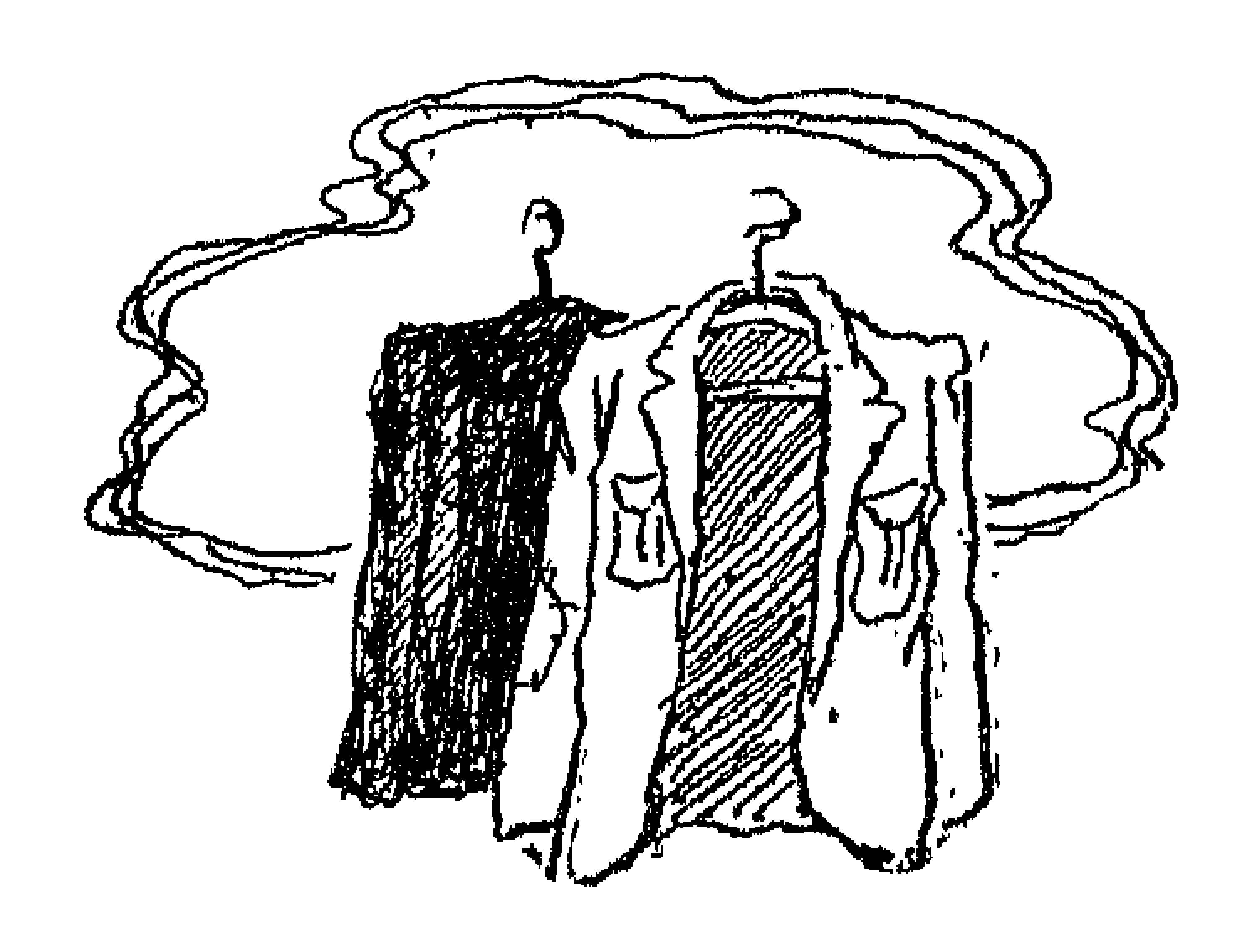
ثلاثة براميل من النبيذ يا مخالى ••

لو كنت أعلم لشربتها فى جوفى وكنت على الأقل •• فقدت الرشد •• فلم أحس بهذه الآلام •• أو فقدت الحياة فاسترحت •• ان ثلاثة براميل تسكر ألف رجل •• تفرغ ألف جيب •• تسعد ألف قلب •• تكسب ألف زبون •• ليتنى مت قبل هذا وهز رأسه فى حسرة واخترق الميدان الغاص بالعربات ، وهو ما زال يفكر فى براميله •• ودوى بوق سيارة •• ونفخ شرطى فى صفارته بشدة •• ولكن مخالى لم يسمع شيئا ولم يحس الا بلطمة معدنية عنيفة توقعه على الأرض وعجلات ثقيلة تسير فوقه ••

وحمل المسكين الى المستشفى وهو يهذى ••

ثلاثة براميل •• ثلاثة براميل من النبيذ يا مخالى ••





الواقف عند مدخل شارع الأزهر ..

يستطيع أن يلتقي بالسبع مزابل التي يحكون عنها .. بدون أن يكلف نفسه مشقة سوى أن يقف مثلي على قارعة الطريق .. يتسكع ..

ولقد كنت أتسكع في ذلك اليوم بعد غذاء غير دسم وأمتص عقب سيجارة تلفظ أنفاسها ويداي في جيوب سروالي .. وتحت ابطي لفافة يطل منها عنق معطف قديم .. وأمامي يتقاطر موكب عجيب مؤلف من عربة بطاطه وعربة رش .. وعسكري وبائع كوارع وشحاذ وثلاثة كلاب ضالة ..

وظللت أتتبع هذا الموكب الغريب حتى ابتعد وذاب في الزحام .. ثم أغرقت في وجوم طويل .. أفقت منه فجأة على يد توضع على كتفي .. ورجل ذي شارب يقول وهو يداعب اللفافة تحت ابطي ..

ـ تبيعه بكام ده ؟ ..

ونظرت اليه وأنا ما زلت على وجومي .. بينما أردف هو مجيبا على نفسه :

ـ ده كهنه .. بالطو كهنه .. ما يسواش مليم .. يوم ما تاخد فيه عشرة قروش تبقى كرامة .. تكسبهم .. ايه رأيك ؟ ..

ونظر الي وأسبل جفنيه في خبث ..

كان من الواضح أنه يعمل في محل الروبابيكيا خلفي .. وأنه حسبني زبونا وأجبت في هدوء ..

ـ ده مش للبيع يا بويا .. ده للتصليح .. واخده معايا للترزي أصلحه ..

ـ أنا عارف أنك مستقل العشرة قروش .. لكن ده بالطو

كهنة ·· وثمنه حرام ·· ويوم ماحاشــوفه بالذمة حارجع في كلامي ·· لكن بأقول ·· أهي بيعه من وش صاحبها ·· عشان ربنا يكرمنا ··

ـ يا سيدى مش عاوز أبيع ·· سيبنى فى حالى ··

ـ دهدى ·· يعنى حتلاقى اللى حيديلك فيه أكثر من عشرة قروش ·· دول كلهم حراميه لو وقعوا عليك حايخدوك انت والبالطو ·· بلاش ·· ليه البطر ده ·· طاوعنى وسيبك من اللف ·· من دكان لدكان ·· وانت أفندى عليك القيمه ومش وش بهدلة ··

ونظر فى عينى وفى رباط عنقى الأسود ، ثم أردف فى حداقة :

ـ متزعلش يا سيدى·· الباقيه فى حياتك كلنا لها ·· كلنا بنموت ·· وهدومنا بتروح للروبابيكيا ·· اتساهل فى البيعه تبقى حسنة على روحه ·· الفاتحه له كرامة للنبى ·· « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله » ··

ـ يا سيدى روحه ايه ·· الهى تطلع روحه ·· انت حتموت أهلى بالحيا ··

ـ يا سيدى حلمك ·· طب اتناشر قرش ·· ويبقو القرشين من عندى ·· عشان متزعلش ··

ـ يا سيدى مش عاوز أبيع بلاطى ·· مش عايز أبيع ··

ـ حلمك طيب شويه ·· خد الخمستاشر ·· وخلصنى ··

ـ خلصنى انت يا أخى وغور من وشى وذهبت مبتعدا ·· وأنا أقرض أسنانى ، ولكن الرجل هرول خلفى ·· وأمسك بكتفى وهتف وقد غير لهجته الرقيقة بلهجة خشنة جافية :

ـ تعالى يا بيه ·· انت رايح فين ·· تعال هنا ··

وجذب اللفافة من تحت ابطى بشدة ··

ـ ورينى ايه ده اللى انت شايله تحت باطك ·· جايبه منين واسمك ايه ·· معاك بطاقة شخصية ·· حاكم أنا فاكرك كويس ·· شفتك قبل كده ·· كام مرة ··

وفهمت أنه يلقى بسهمه الأخير على احتمال أنى لص ، ولكنى عاجلته بدفعة كادت تلقيه على الأرض ··

ــ غور يا حيوان ٠٠ انت فاكر كل الناس حراميه زيك ٠٠ امشي ٠٠ اوعى تقرب منى ٠٠

وانكمش الرجل فى رعب ٠٠ وتخاذل فى جلبابه ٠٠ ورأيت طرفى شاربه يتراخيان الى أسفل ذقنه ٠٠ وما لبث أن ابتلعه الرصيف ٠٠ واختفى بين السراويل والمعاطف المعلقة فى دكانه

وعدت الى تسكعى وأنا ألعن الغباء وأصحابه ٠٠ ثم بدأت أسرح فى الزحام من جديد ٠٠ مع باعة الليف والمشابك ٠٠ والنفتالين ٠٠ ومع الكمسارية ٠٠ والترام الذى يشق كتل الناس كثعبان من حديد ٠٠ ومع القفاطين والطرابيش ٠٠ والصياح والنباح ٠٠

وما كدت أستغرق فى هذا السرحان اللذيذ ٠٠ حتى رأيت شيئا تحت أنفى ٠٠ حزمة من أوراق اليانصيب ٠٠ ووجه امرأة عجوز يحملق فى بعينين غارقتين فى هالة من التجاعيد ٠

ــ اللى تكسب ٠٠ الاسعاف النهارده ٠٠ ألفين جنيه ٠٠ ألفين جنيه البريمو ٠٠ خدها يا خويا ربنا يجعلها من قسمتك

ــ يا ستى مش عاوز بريمو ولا ترسو ٠٠

ــ ربنا ما يغلبلك وليه ، ولا يوريك بليه ٠٠

ــ يحنن يا ستى ٠٠

ــ دنا غلبانه ٠٠ وماليش حد ٠٠ ربنا يفك ضيقتك يا بنى ٠٠ الهى يوقفلك ولاد الحلال ٠٠ ويجعـل الناشـفه فى ايدك خضرة ٠٠ انت وكافة المسلمين ٠٠

ــ يا ستى أنا مش مسلم ٠٠ أنا درزى ٠٠

ــ أهو كلنا عبيـــده يابنى ٠٠ الهى يجعلك فى كل خطوة سلامه ٠٠ ويرزقك من حيث لا تدرى ٠٠ ويكفيك شر ما ٠٠

ــ يا ستى مش عاوز ٠٠ مش عاوز لا بريمو ولا فقر ٠٠ سيبينى فى حالى ٠٠ وعدت أنفخ من الغيظ ٠٠ وانزلقت الى رصيف آخر ٠٠ هاربا من الألفين جنيه ٠٠ ولكن المولد كان قد سبقنى الى هناك ٠٠

● الروايح ٠٠ الروايح ٠٠ الفل والياسمين والنرجس ٠٠ والعنبر ٠٠ عنبر من مكة ٠٠ من بلد الرسول ٠٠



● نضارات أمريكانى ·· شنبر مسلح ·· سلك مذهب ·· قزاز أصلى من بتاع بره ··
● كله بقرشين ·· كل حاجة بقرشين ·· مشط بقرشين لعبه للعيل بقرشين ·· حزام بقرشين ·· سكينه بقرشين ·· مقص ·· بقرشين ·· بضاعة المفلس ··
● أهرام ·· أهرام ·· كتاب اليوم ·· اقرأ ·· ذئاب الغابة ·· قلوب تحترق ·· الزوبعة ، حب فى الظلام ، اهرام بورص ··
● سينما النهضة ·· أعظم فيلم فى التاريخ ·· المخاطر الرائعة ، واللصوصية العظيمة ·· مع فيلم الآنسة حسبو ·· احجزوا تذاكركم من الآن ··
وضحكت ··

ضحكت فى هستيريا ·· فقد كانت الحياة فى هستيريا حولى وأفرجت الضحكة عن سخطى ·· وبدأت أتعود على الضجيج ·· وخيل الى انى لو تحولت الى السكون لاستشعرت الوحشة ··
وجلست على مقهى من مقاهى الأرصفة ·· أرشف الشاى ·· وأغرق فى التأمل من لحظة لأخرى ·· وكان الى جوارى رجل سمين ذو لحية هائلة مربعة وطربوش مقعر منبعج ·· يشبه فى مجمله خديويا سابقا ·· أو خليفة تركيا من آل عثمان لولا انه كان حافيا ·· وكان يدير فيما حوله نظرات وقورة جليلة ·· وكأنه ينتظر من النـاس فى كل لحظة أن يهجموا عليه ويختطفوا يده ليقبلوها ··

أما أنا بالذات فقد سول لى شيطانى أن أهوى على قفاه ·· وكان هذا خاطرا ·· مجرد خاطر ·· ربما علته ·· ان الرجل كان يمتلك قفا عريضا محببا ·· وقد ظللت ابتسم ·· وأنا أرشف الشاى وأنظر الى هـذا القفا العريض المحبب ·· لم يخرجنى من ابتسامتى الا رجل نحيل مال على فى وجل ·· ثم أخرج من جيبه شيئا عرضه على ، وهمس ··
ــ بخمسين قرش بس ··
وكان يحمل فى يده ساعة أنيقة مذهبة ··

وتعجبت لحظة لهذا السعر ‥ ولكنى توجست فى الأمر شيئا فقلت فى ضيق ‥

ـ امشى ‥ مش عايز ‥

فابتعد الرجل بسرعة ‥ أما أنا فقد راودنى شيطانى ‥ فى أن أعاود النظر فى هذه الساعة وأفحصها ‥

ولعل الرجل أحس بفضولى فعاد من تلقاء نفسه وناولنى الساعة ‥ فرحت أفحصها متعجبا ‥ خمسون قرشا ‥ لابد أنها ساعة تالفة غير صالحة لأن تعيش دقيقة واحدة ‥ أو لعلها سرقة ‥

ـ دى ساعة خربانة ‥

ـ خربانه يا بيه ‥ دى ساعة زى الجنيه ‥ ما تأخرش ثانية ‥

ـ خد ياعم يفتح الله ‥ مش عايز ساعات ‥

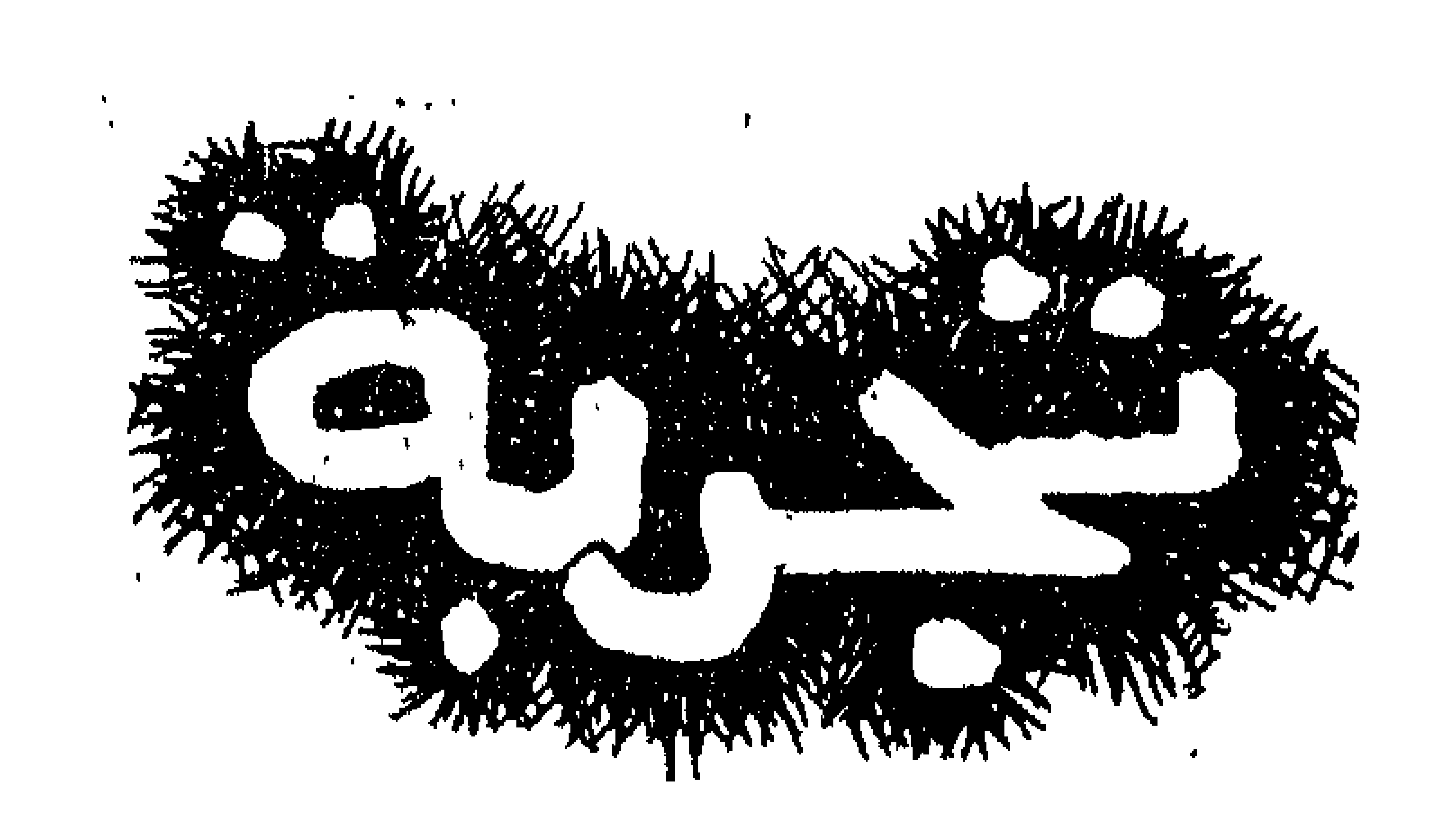
وانصرف الرجل ‥ وعدت أنا الى شيطانى ‥ خمسون قرشا ‥ انها لفرصة ‥ حتى ولو كانت تالفه ‥ نعم ‥ حتى ولو كانت تالفه ‥

وكأنما سمع الرجل خواطرى ‥ فاذا به قد عاد ‥ وفى يده الساعة من جديد ‥ ودسها تحت عينى ‥ وقلبها على وجهيها ‥ وخلعها ولبسها أمام بصرى الزائغ ‥ وأنا أقول فى نفسى ‥

خمسون قرشا ‥ انه لسعر حسن حتى ولو كانت ساعة رملية ‥ نعم ‥ حتى ولو كانت تالفه ‥ ولكنها تدور ‥ ونقدته الخمسين قرشا فى صمت كأنى أرتكب جريمة ‥ ودفعت حسابى للمقهى ‥ وانصرفت ومعصمى على أذنى ‥ أتسمع الدقات القوية المنتظمة ‥ ولم تمض دقائق حتى اكتشفت أنها ساعة جيدة حقا ‥ كل ماهنالك أنها تحتاج للرج البسيط من وقت لآخر ‥ على سبيل التنبيه ‥ فتروسها كالخيول المتعبة تحتاج الى كرباج كل دقيقتين ‥ نعم ‥ ساعة كل مافيها سليم ‥ ماعدا شيئا واحدا بسيطا هو مسمار الملء الذى يدور على نفسه مستقلا عن الزنبلك ‥

والزنبلك الذى يدور على هواه .. مستقلا عن العقارب ..
وحينما أقبل المساء وأنا مازلت أرج معصمي بين لحظة وأخرى
تخيلت السنوات التي تبقت من عمرى .. أنفقها فى هذا الرج
المتوالى وبدأت أفهم أن الخمسين قرشا يمكن أن تكون مبـلغا
كبيرا ..

وحينما بلغت منزلى كان يجثم على هم ثقيل .. وكنت مازلت
أرج الساعة فلا أسمع التيك تاك .. تيك تاك .. التى نعهدها
فى الساعات .. وانما أسمع شيئا آخر .. أسمع سيال الحياة
الذى يدق فى ذلك الشارع المزدحم .. والنـاس يتدافعون
بالمناكب .. ويصرخون على الرزق .. ويتقاتلون على القوت ..
وفى النهاية لايعدمون سبيلا للوصول الى جيوب الأذكياء ..
العقلاء أمثالى .. أرج الساعة .. وأضعها على أذنى .. فأسمع
ذلك الصوت الهامس المبحوح .. خمسين قرش بس .. وأطالع
ذلك الوجه الهضيم الشاحب كوجه ميت محنط .. وأقرأ ذلك
الكفاح المستميت فى سبيل اللقمة فتنفرج أساريرى .. وأرج
الساعة لأصغى من جديد .. الى دق الحياة .. الى هستيريا
المزابل السبعة فى القاهرة القديمة ..


تجربة



أنا طبيب .. وصاحب سيادة .. وصاحب جلالة .. والا فما معنى هذا !! ..

ما معنى أن أكون طبيبا فى بندر الصف لا أملك سوى فوطة ومكتب أعرج وعيادة بها زجاجات من الارواح وحقن من التعاويذ .. وبعض عيدان ثقاب أشعل الواحد منهـــا مرتين لأدخن سيجارتي الرخيصة .. مامعنى أن أكون هـــذا المخلوق الذى نسيه الله ومع هذا يركع كل يوم عند قدمى ألف فلاح يسألنى الشفاء بصوت مرتجف أبله ..

ـ ياصاحب السعادة .. أدام الله عزك .. أنا مريض وصاحب ولايا ليس لهم غيرك وفى بطنى ألم حاد يقتلنى .. والرجا من مكارمك أن تكتب لى مزيج الحديد .

فأقول فى صوت يتقطع يأسا :

ـ ولكن مزيج الحديد يا عم لن يفعل لك شيئا .. أنت مريض بالديدان .. فى بطنك ودمك وكبدك .. آلاف الديدان .. وأنا بعد كل هذا لست صاحب سعادة وانما صاحب عيـــال مثلك تماما ..

ـ ديدان يا صاحب السعادة .. تقول ديدان ولكنى أخذت شربة للديدان ..

ـ نعم أخذت كل هذا .. ثم عدت الى الحقل ..

ـ وأى شىء فى هذا .. لقد ولدت فى الحقـــل ياصاحب السعادة وتربيت فى الحقل وسأموت فى الحقل وهل لنا غـــير الحقل ياعمى ..

ـ ان الحقل هو الذى صنع لك ديدانا غيرها حينما سرت فى أوحاله بقدميك الحافيتين كما تصنع كل يوم ..

ـ انى حافى ولكنى شريف ياســـيدى لا أسرق ولا أكذب ولا أرتكب فاحشة .. والله لولا مولد سيدى أبو مرجان لقلت أكثر من هذا .. رحم الله صاحب السعادة الذى ذهب قبلك .. لقد كان يعطينى مزيج الحديد كلما طلبته وماكان يقول عنى انى



حافى أو أني أسير في الاوحال ·· وهل الفقر معرة يا خال ·· انى فقير وأجدادى حفاة ولكننا شرفاء ·· نأكل خبزنا بعرقنا ونحمد الله على كسرة نتبلغ بها ··

حقا لقد شح الخير فى هذه الدنيا وامتنع العقل حتى أصبح الحفاء عارا يوصم به الطيبون ··

ألم أقل لك ألف شبح ·· نعم ·· ألف شبح أمثال هـذا وأكثر يدخلون على كل يوم فى طابور معروق شاحب وكل واحد يطلب مزيج الحديد ويرفض أن يفهم شيئا ·· السرطان فى بندر الصف يعالج بمزيج الحديد والجذام يعالج بمزيج الحديد والمغص بمزيج الحديد ··

·· كان الله فى عونى ·· ألم أقل ان عندى زجاجات ملأى بالتعاويذ ·· وهل أكبر من الحـديد تعويذة شفت جميع الأمراض ··

انى أعالج مريض البلهارسيا ليشرب الماء العكر ويعود الى مريضا فى اليوم التالى لأعالجه من جديد ويسميني المجتمع دكتورا ·· أى فرق بينى وبين سيدى أبو مرجان فى القـدرة على شفاء المرضى ··

انه ليخيل الى أحيانا أن فوطتى البيضاء عمامة خضراء كبيرة منصوبة على ضريح لشيخ عتيق أبله يضحك على الناس وعلى نفسه ···

كان الله فى عونى مرة أخرى ··

كان عندى بالأمس رجل ·· رجل طويل شاحب كصفصافة تساقطت أوراقها ·· قال انه فلاح بالأجرة ثم تربع على الارض كأنه سيتلو سورة ، ونظر الى بعينيه الضيقتين كثقبين وشرع يقص قصة طويلة كان يقطعها بين حين وآخر بأن يخبط بيده على ساقه ويغمغم ·· ان الله موجود ·· أليس كذلك ·· وينظر الى بعينين ذاهلتين ويظل ساهما هكذا حتى أقول أنا الآخر ·· نعم ان الله موجود يا عمى ·· وهو يرعانا جميعا ·· فيعود الى ثرثرته ·· كأنه شادوف يدلى بدلوه حتى يمتلىء ، ثم يفرغ نفسه ··

انه رجل من أقصى الصعيد .. من أرض السعير والشمس الحامية .. أكل في صغره مع اللفت والسباب واللعنات كلاما كثيرا عن الشرف والدين والقناعة .. علموه أن خد زوجته اذا بان من خلف النوافذ فدمها حلال .. هكذا قالت الأخلاق والمثل العليا .. وقد صدق هذه الفرية فشطر زوجته نصفين بضربة واحدة من سكينة ليمسح العار ويدخل الجنة .. فدخل السجن حيث قضى سبع سنوات يقطع الحجارة ويتقيأ الاكاذيب التي تعلمها عن الشرف والعار .. وخرج من السجن ليتلقى الثأر .. رصاصة أفقدته ذراعه ثم ليذهب بعد هذا الى الصف سيرا على القدمين ويعمل مع اجراء الأرض .. يزرع ليأكل ويأكل ليزرع ..

فاذا رأى بهيه فقد فكر في أن يقتنيها كما يقتني شجرة أو بقرة .. فطلب يدها وتزوجها وعاشا أعواما لينسلا أطفالا يولدون ويمرضون ويموتون .. والحياة مع هذا تسير لاتعبأ بشيء .. الشمس تطلع من الشرق والقمح ينمو والسماء تمطر في الشتاء .. لا شيء يتغير كأن موت الأطفال مسألة لاتهم الطبيعة .. ومع هذا فقد كانت تهمه هو الذى كان يرى كل فلاح يقتني امرأة وبقرة وكلبا وعشرة أولاد .. وهويقتني امرأة وبقرة وكلبا فقط ..

وكان هذا بداية عهد جديد في عقل علوان انتهى بأن أصبح يملك أربع نساء وعشر بقرات وثلاثة كلاب وفدانا .. ومعهذا ظل يرى عشرة أولاد عند كل فلاح .. كل ولد كطعنة فيقلبه

وحينما أصبحت فدادينه عشرة كان حقده مع هذا يزداد .

« لقد سرقت » .. يقول هذا في بساطة ثم يغمغم : « انالله موجود أليس كذلك .. » ويخبط على ساقه فأقول في حركة آلية : « نعم ان الله موجود وهو يرعانا جميعا .. » فيعود إلى ثرثرته ..

لقد سرق وقتل واحتال ولم يدع طريقا من طرائق العنف الا ارتكبه .. سرق كيزان الذرة وأكياس القطن فلما اشتد ساعده سرق بقرة وقطيعا منالمواشيوآلة رى ثم سرق كل شيء

حتى ماء الترع شق له المجارى ليسقى أرضه وأدارله الشواديف والطنابير وتناسلت فدادينه من عشرة أفدنة الى عديد من الفدادين وتناسلت سرقاته الى عديد من الجرائم . . وازداد طوله فى القرية وكثر عدد الذين ينحنون له كل يوم ويقولون له ياحاج . .

وهانت الأرواح فى يديه فأصبح يذبح الناس ويترحم عليهم كما نذبح نحن الدجاج ونقرأ عليها اسم الله ليحل لنا لحمها .

لقد استحل كل حرام ومع هذا ظل يخبط على ساقه ويحملق فى وجهى قائلا : « ان الله موجـود . . أليس كذلك » . . ثم يرمقنى بعينين حادتين كعينى الصقر . . حتى اذا بان له فى وجهى سمات الذعر والدهشة تراخت تجاعيد وجهه الخشبى وطافت على فمه ابتسامة صفراء ثم قال :

ـ أنت اذن لاتصدق ان الله موجود . .

ثم يردف مجيبا على نفسه . .

ـ بل هو موجود . . وكلنا نسمع الحاج أمين فى خطبـة الجمعة يتحدث عن الله حديثه عن حقيقة لاتقبل الشك . .

وطاف بذهنى فى تلك اللحظة شـبح الحاج أمين وتهافتت خطبه الفصيحة على صفحات ذاكرتى ولكننى مالبثت أن تيقظت على صوت صاحبى الأجش يغمغم :

ـ ان الحاج أمين رجل طيب أليس كذلك . . لقد ظللت عشر سنوات أتفيأ بركاته ظهر كل جمعة . . أغتسل وأتطهروأتربع على الحصير وأرهف أذنى لخطبه السـخية وارتجف فى داخلى ذعرا من عذاب الآخرة . . الى أن كان ذلك اليوم الميمون الذى رأيته فيه يتلقى مائة جنيه رشوة ليشهد زورا فى حق رجـل برىء لايملك شيئا . . رأيته بعينى هاتين لانى أنا الذى رشوته . . أنا الذى وضعت فى يده الورقات العشر ورأيت اليـدين ترتعشان فرحا والعينين تشرقان اشراقة السعادة وسـمعت الشفتين تهمسان حديثا غريبا ليس كأحاديث الجمعة . . وزج البرىء فى السجن . . ومع هذا ظل الحاج أمين يتحدث كل جمعة عن الشرف والعدل والفضيلة ويسبح بوجود الله . .

بلغ الرجل هذا الحد من قصته ثم سكت . . هذه المرة دون

أن يخبط على ساقه ودون أن يتمتم شـــيئا ٠٠ ثم أردف فى مرارة :

ـ كل واحد فى هذه القرية كلب ٠٠ لقد اختبرتهم كلهـم بقروشي ٠٠ كلهم كلاب ٠٠ لايتورع أحدهم عن ارتكاب أشنع الآثام اذا اطمأن الى الثمن والى صمت الجدران ٠٠ المحامى كلب والدكتور كلب ٠٠

قال هذا ونظر الى بعينين تقدحان شررا ٠٠ فقلت دون أن أعى ما أقول من الذعر : « هذا صحيح ياعم » ٠ فمضى يعيـــد فى نغم أشد حدة :

ـ كل واحد فى هذه القرية كلب ٠٠ ولكن من المسئول عن كل هذا ؟ ٠٠

فقلت وقد أحسست أن هذا سؤال أكبر من رأسى :

ـ لا أدرى يا عم ٠٠ لا أدرى ٠٠ لعلها ارادة من ارادات الله

فقال فى بلاهة :

ـ أما أنا فأدرى ٠٠ ويدرى أيضا ذراعى هذا الضامر كذراع الفأس ، فقد اجتز بالأمس رأس خطيب الجامع بسكين وألقاه فى الساقية ٠٠ ألعلها أيضا ارادة أخرى من ارادات الله ٠٠

فأجبت وأنا أرتعد :

ـ لا أدرى يا عم ٠٠

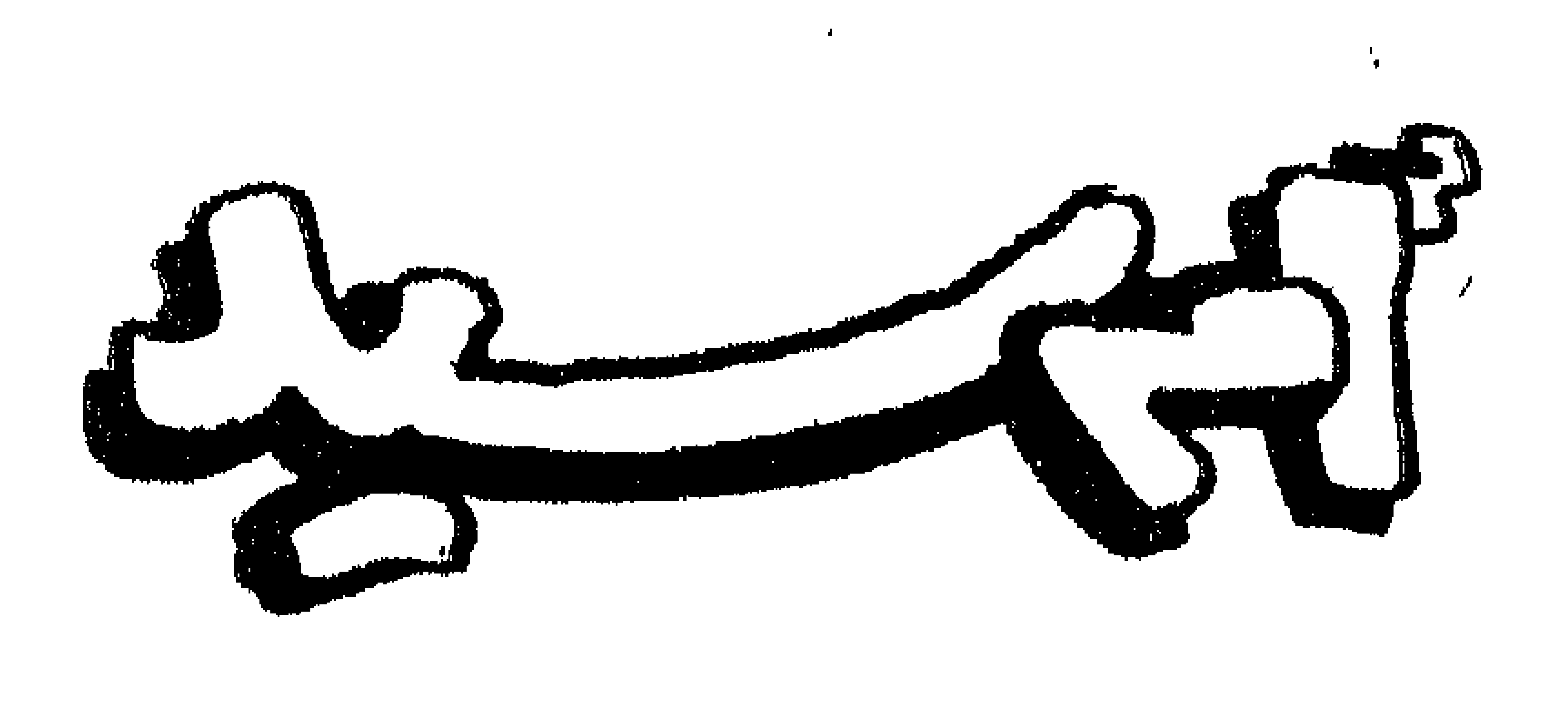
فقال فى عزم :

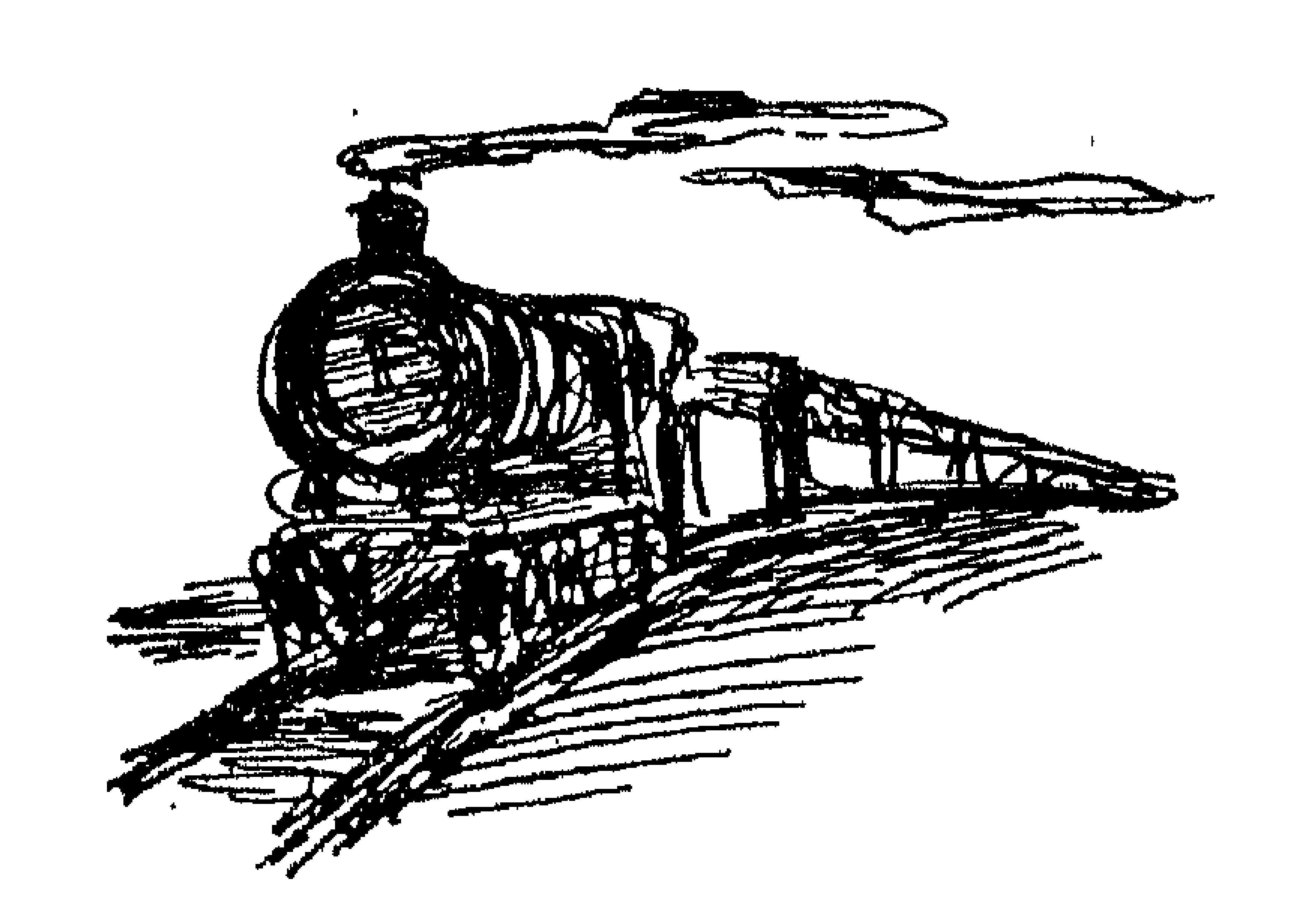
ـ لا بل انت الذى تدرى ٠٠ ومع هذا فلا تخف فأنا رجل ميت فقد قدمت اليوم من القاهرة حيث قال لى الأطباء الكبار انى ميت ٠٠ ميت بالسرطان ولا شيء يستطيع انقاذى ٠٠

قال هذا ومضى يدب فى طريقه الى الباب كجميزة عتيقة ٠٠ وعند الباب استدار قائلا وعيناه تلتمعان :

ـ أهى ارادة أخرى من ارادات الله ٠٠ أم انك لاتدرى ٠٠

وفى هذه المرة لم ينتظر جوابا بل مضى يخب فى الطريق الذى تضربه الشمس وأحسست وأنا واقف الى جوار مكتبى أن يدى فى جراب فوطتى البيضاء وانهما مازالتا ترتعدان ٠٠


اُمید



.. مصر أم الدنيا .. وأمنا جميعا .. وأم كل الأشياء ..
تجد فى مصر القبعات واللاسات .. والبراطيش والمساجد والبارات والصحف والشخاشيخ ومطاعم الفول ، وكل شيء حتى الفيلة والنسانيس ..

وأم سيد ذاهبة اليــــوم الى مصر .. وهى تجمع حاجاتها وتحشرها فى صرة وتغنى ومن حولها حلقة من الصبية يحملقون فيها كأنها طير برى ..

انها سوف تذهب الى مصر وتركب الترام .. وتعود لتحكى للحارة والجيران انها ركبت حصانا من حديد له زلومة طويلة تجرى على الأسلاك .. وهى تغنى وتلوك بين أسنانها شـيئا كالعجوة ، وتزم على خصرها حزاما من العبك .. وتصـــيح فى أولادها ..

ـ ولاه .. ولاه .. فين صرة البلح .. فين سبت الكحك .. فين شالى .. وخلخالى .. ومداسى .. ولاه .. ولاه .

وتحزم أحمالها فى حزمة واحدة .. وتزدرد كوزا من الماء .. وتهرول الى الباب ، ومن حولها سامر العيال يهتف ويهلل .. خدينى ياما .. حاطاوعك ياما .. عاوز أشوف خالى ياما .. والنبى ياما .

ـ بس يا مناكيد .. بس يا لمامة .. بس يا حوش .. دنا رايحه مصر .. هو أنا رايحه قحافة .. هو أنا رايحه تلا .. دنا رايحه مصر .. أم الدنيا ..

وتستطيل وجوه العيال وتتسمر نظراتهـــم فى بلاهة وهم يحملقون فى أمهم فى اعجاب كأنهم ينظرون الى الهرم .

***

وفى قطار الدلتا وعرباته التى تشبه عربات الكلاب تجلس أم سيد تنظر الى الحقول وهى تجرى وتصغى الى صوت المحرك وهو ينقنق كالضفدعة وتمسح عرق ثمانين عاما وتحتضن سلة الكعك بأيد ضنينة .

ان ثمانين عاما من عمر أم سيد لاتفترق عن عمر شجرة مزروعة فى الأرض .. فالأحداث من حولها تمضى .. وهى كما هى بملاءتها وشالها وخلخالها والحصير الذى تتمدد عليه ، والعناكب والفئران والأولاد المناكيد ورنين الماء وهو يتساقط قطرة قطرة الى جوارها .. وزوجها وهو يلوح بذراعه صائحا ..

وليه .. وليه .. الزير بيشر .. وانت نايمه زى المهيمة .. هو مال يهود .. يابنت الـ ..

والعمر يمضى .. وهى كما هى .. أم سيد ..

أمها تموت ، وأبوها يموت ، وزوجها يموت .. وأهلها يموتون .. وأولادها يموتون .. وهى باقية كاطار فارغ نزعت أحشاؤه ..

ولعلها ولدت ميتة .. أو أنها ماتت من زمن طويل .. فهى قلما تحس بشيء الآن .. وقلما تتيقظ من سباتها الا فى لحظات قصيرة خاطفة حينما تسمع امرأة تولول .. فتبكى هى الأخرى .. وتولول .. لا تدرى لم .. وانما هى تعوى كما يعوى كلب ضال .. حتى تتعب فتسكت ، وتعود الى الاغفاء .. والنسيان .. فكل شيء فيها مدفون .. وهى وسط الحطام كشاهد مقبرة يدل على مكان المأساة ..

انها ليست بالشيء المهم .. فهى جزء من الدشت البشرى الذى يملأ الأرض لا يقدم فيها ولا يؤخر ..

***

ـ أم سيد هاتى كحكة .. أم سيد هاتى كورة .. أم سيد هاتى نبوت .. أم سيد هاتى حضن ..

لقد وصلت أم سيد الى القاهرة .. وشدت السقاطة العتيقة فى عطفة الحصرى وصعدت الدرجات الخشبية ، ثم صاحت صيحتها المعهودة .. ولاه .. ولاه .. فاجتمعت حولها العائلة ترقص وتهلل وتتشبث بشالها .. وتتساقط على صرة الكعك كالجراد .. وتجمع الأطفال فى حلقة وسط الغرفة بينما تقوست هى فى ركن مظلم .. وتراخت أطرافها المعروقة كفروع اللبلاب الجافة ..



لقد أنهكها المشوار فتكومت كالثوب القديم وأسندت رأسها الى الشباك ، وضاعت فى صراخ الأطفال وعواء الباعة الجائلين وكركرة عربات اليد وصرير العجلات وجلجلة الحناطير ..

ورفعت رأسها ودققت فى المصباح ، انها ترى مصباحين اثنين .. لقد أصبحت ترى الأشياء مضاعفة .. وأحيانا تراها مكبرة .. وأحيانا تراها ملونة . وأحيانا تراها مغلفة بوشاح كالضباب . وأحيانا لاتراها على الاطلاق ..

أين العيال ؟ ..

لقد ذهبوا ..

وهمست العجوز الى نفسها ! ..

ـ فيما مضى كان لى عيال مثل هؤلاء .. وكان لى رجل .. وكنت عروسا لا أعجن ولا أخبز . ولا أنزل الى السوق وانما أنام على سرير معدن .. وآكل وأشرب وألد وأغسل لزوجى رجليه ..

وكان لى فستان أحمر محلى بالترتر وقميص بالقصب ، ومكحلة ومرود ، وكان صوتى حلوا فيه غنه .. وكان المرحوم يقول غنى يا عواطف غنى .. وكنت أهرب منه الى السطح وأختبىء فى غرفة الدجاج ، وأنقر بيدى على الطبلية المكسورة وأصفق بأساورى الزجاج .. وأغنى ويحمر خداى كالطفلة الشقية .. آه يا أسمر اللون .. حياتى أسمرانى .

فين راح زمانك .. يا أم سيد ..

وأخرجت أم سيد ذراعها الباردة المعروقة من شق جلبابها ولفت فيها رأسها المتعبة ، واختلست نظرة الى الباب الذى سودته أشباح طويلة هزيلة ودخلت جاراتها العجائز .. واجتمعت على الأرض حلقة من النسوة يتحادثن فى وقت واحد ، ثم يسكتن فجأة .. فتقول واحدة : والله سلمات .. والله زمان .. يا أم سيد .. فين الأيام .

ومن تحت الشباك يتصاعد صوت رفيع مخنوق ينادى على

البليلة ٠٠ وتضحك الوجوه الصفراء الهرمة ضحكات واسعة بلا أسنان وتبدو فى النور الشاحب كوجوه من المصيص ٠

***

لقد مر على أم سيد أسبوع فى القاهرة ولكنها ملت القاهرة ٠٠ لكم تغير الناس فى المدينة ٠٠

لقد قالوا لها ان حفيدها أصبح مديرا أصبح بيه كبير ٠٠ فذهبت لتسلم عليه وتأخذه بالحضن ٠٠ ووضعت صرتها الى جوار الباب ، ثم صفقت ٠٠ وفتح الباب رجل نظر اليها مليا ٠٠ وحينما قالت له ٠٠ أنا أم سيد ٠٠ أنا ستك ٠٠ دخل وغاب طويلاوسمعته يقول وهو يلوح بذراعه ٠٠ أدوها حاجة لله ٠

ولكنها لاتريد شيئا لله ٠٠ انها تريد أن تقبله ٠٠ وتعطيه بعض الكعك ٠٠

ذلك الطفل الكبير الذى طالما مسحت له دموعه وهو رضيع ٠٠

ولكنه ذهب ٠٠ ذهب وأغلق خلفه الباب ٠٠

لم تعد القاهرة بلدك يا أم سيد ٠٠ أن بلدك هناك عند السواقى ٠٠

***

وعادت العجوز الى عطفة الحصرى ، وجمعت حاجياتها وقبلت الأطفال ، وألقت نظرة دامعة على القاهرة ٠٠ أم الدنيا ٠٠ ثم مضت تخب فى ملاءتها الى حيث القطار وعرباته الصاج التى تشبه القنافد ٠٠ وألقت بجسمها المكدود على المقعد ، ومددت ساقها الوارمة ٠٠

***

وفى البلد حينما تجمع حولها الأطفال يسألونها عن مصر ٠٠ نظرت فى وجوههم البيضاء ٠٠ وفكرت فى مرارة الصدق ٠٠ ثم بدأت تروى قصة طويلة مكذوبة :

ـ مصر يا ولاه ٠٠ يا سلام ٠٠

ـ أيوه ياخالتى .. والنبي ياخالتي ..
ـ مصر ياولاه .. شوارعها مفروشة أبسطة ..
ـ ياحلاوة .. ياخالتى ..
ـ وبيوتها مكسية مرايات .. وغيطانها ..
ـ أيوه ياخالتى ..
ـ مسقية كولونيا ..
ـ ياحلاوة ياخالتى ..
ومضت تكذب ..

وبات الأطفال يحلمون بالاكاذيب .. وباتت هى تحملق فى الشراعة العارية وفى نجوم الليل وتصغى الى وابور الحليج الذى ينعب كالبومة من بعيد ..

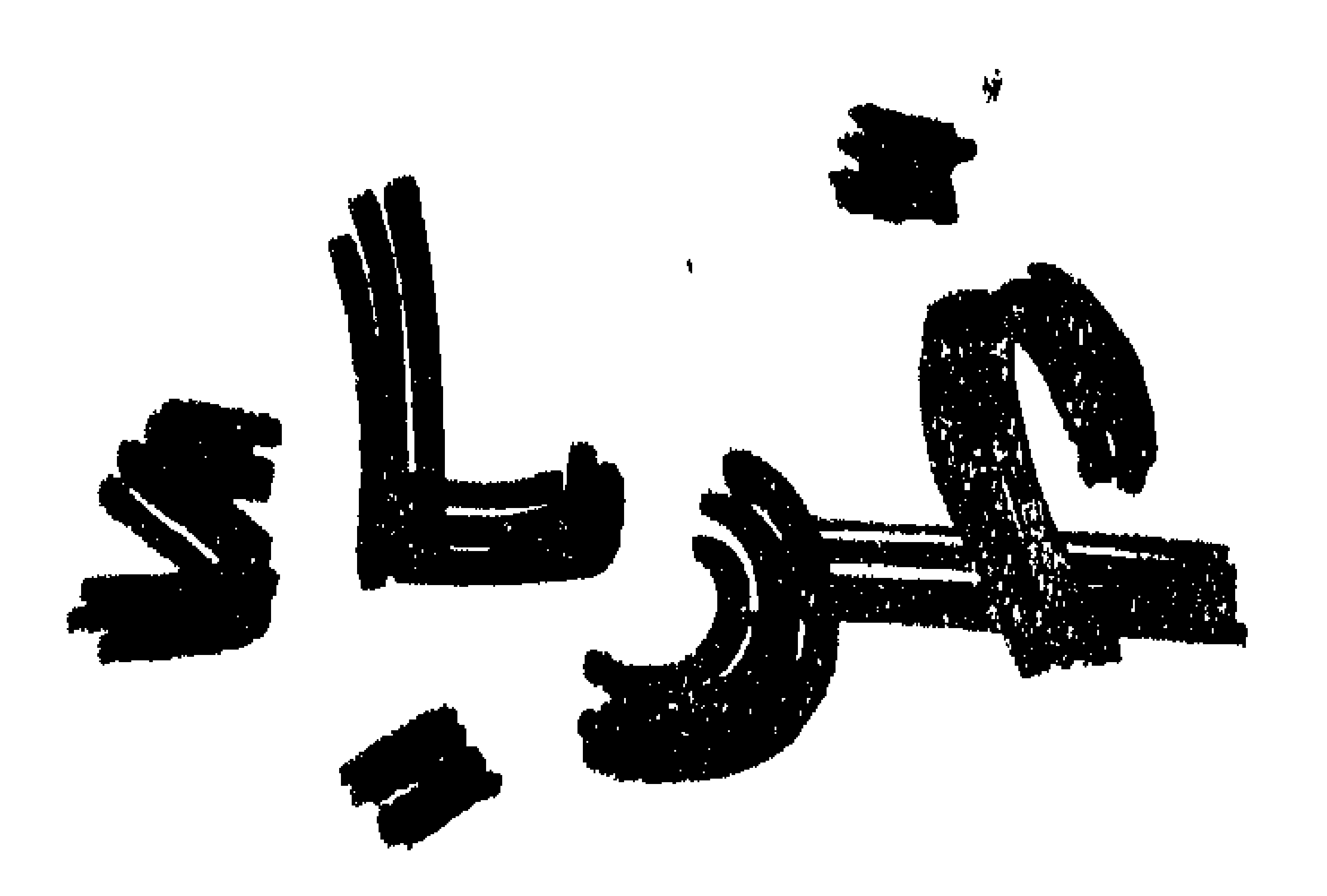
لقد نسيها الكبار ..

ترعرعت فى قلوبهم القسوة .. ولم يبق لها الا عالم الاطفال يتظللون فيها كالكتاكيت تحت الجميزة العتيقة ..

لم يقسو الانسان هكذا حينما يكبر ؟ ..

انها لاتدرى ..

نعم لاتدرى ..


غربة



القاهرة منذ خمسة عشر عاما ..
وأنا صغير .. بنطلونى ينتهى عند ركبتى .. ومغامراتى تنتهى عند تدخين سيجارة تحت اللحاف .. أشعلها وأنا أفرقع بالكبريت فى حركات بهلوانية ناضجة تشبه مايفعله أبى على المقهى .. أمتص بعدها الدخان من فمى وأخرجه من أنفى ، ثم أشفطه فى صدرى وأنفثه فى خيط رفيع وأنا سارح .. أفكر فى أشياء كبيرة .. مثل جلاء الانجليز .. ودنشواى .. والخديوى .. واينشتين .. والمسيح .. والشطرنج .. وطرزان وأشياء أخرى من التى تجرى على أفواه العيال الكبار ذوى الشوارب المفتولة ..

ان الطريق الى النضج السياسى كان بسيطا .. ان يدخن الولد الصغير مثلى سيجارة كاملة بدون أن يسعل ..
ولقد كنت أكثر من رجل سياسى .. كنت ولدا مهما يلتهم المجلات والروايات ويدخل السينمات من النوافذ .. ولقد اقتنعت بعد أن امتلأت بهذه الفنون العريقة ان الانسان الكامل ماهو الا جهاز تناسلى يسير على قدمين .. وان الاستيلاء على قلب امرأة واخضاعها بكرباج هو الطريق الوحيد الى الرجولة .
وفى احدى الليالى .. وتحت مصباح متألق عند رأس الحارة كنا خمسة .. نجلس على الأرض .. ونتحدث فى وقت واحد عن النسوان .. وكان رفاقى كلهم كبارا .. ذوى شوارب .. وكانوا يتحدثون عن ليالى باهرة .. وأشياء غريبة تحدث فى الفراش .. تنتهى بالتأوهات .. وتبادل القبل .. ثم يضغط الواحد منهم على زميله ويقول وعيناه تبرقان ..
ـ ياسلام .. راجل والنبى راجل ..
فيقول آخر :

ـ ودى تيجى ايه دى .. فى البت بتاع المولد .. ياسلام ياجدعان والله للصبح .. لغاية ما الديك ادن .. واحنا فى كاس يفرغ وكاس ينتلى .. بت قمر ياجدعان .. ملبن .
فيصفق الرجال الأربعة فى نشوة ويهتفون .
ـ ملبن ياوله ملبن ..



وأنا جالس أبلع ريقي .. وفي جسدي رجفة غريبة لذيذة
وأخيرا قال أكبرهم .. وهو يضرب بيده على ظهر الجالس الى جواره ..

– ومستنيين ايه ياولاد .. ما احنا فيها .. نعملها ليلة غندره .. معاكو كام ؟..

وأخرج كل منا قروشا ..

وجمعها صاحبنا .. وأخذ يعدها .. ثم قال في نشوة :

– كفاية أوى .. وكتير كمان .. أنا حاخليهالكم ليلةدندشة .. استنونى هنا خمسة .. متقوموش ..

وقام يهرول .. وغاب زمنا طويلا خيل الى أنه دهر ..
وكان العرق يتفصد من جبهتي .. وكنت أرتعد بمزيج من الفضول والخوف والخجل والحيرة ..

وأخيرا بدا عند رأس الشارع يزحف في الظلام وفي يده فتاة نحيلة حافية .. وفي يده الأخرى لفافة .. وقال في هدوء وهو يدفع بالفتاة تحت المصباح ..

– سلمى عليهم يا أطاطه دول أخواتى ..

وسلمت علينا أطاطه ولاحظت أن عينيها واسعتان .. واسعتان جدا .. وأنهما جامدتان .. وان كل شيء في وجهها صلب وجامد مثل وجوه الرجال ..

وسرنا سويا الى بيت علوان وكنا نتكلم ونضحك فتضحك أطاطه ضحكة حجرية أكثر خشونة من ضحكاتنا ..

وفي غرفة قذرة عارية .. جلسنا جميعا في حلقة حول زجاجة بها سائل أحمر وطبق به جبن وزيتون ..

وأخذنا نأكل ونشرب .. ونغني بأصوات قبيحة .. وشربت معهم .. وثقلت رأسي ..

ثقلت رأسي .. جدا ..

***

وحينما دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل .. كنت وحدي في الغرفة .. والى جوارى اطاطه .. ولم أكن أعرف ماذا على أن أعمل ..

ووجدت نفسى فجأة أبكى ..

وطبطبت على الفتاة .. وقبلتنى فى خدى .. ثم أخرجت من جيبها قطعة من الخبز قدمتها لى .. وجلسنا نأكل .. وقلت لها فى خوف ..

ـ هل أنا راجل يا اطاطه ..

فقالت فى صوت عذب ..

ـ أمال انت راجل قوى .. أرجل منهم كلهم ..

وفرحت وصفقت بيدى .. وتذكرت طرزان .. وضمتنى اطاطه .. وقبلتنى فى خدى .. وقالت لى ..

ـ أنا با احبك .. تعال معايا .. ياللا ننزل من هنا ..

ـ فين ؟ ..

ـ تعالى معايا .. وصلنى لأمى !..

ونزلنا سويا .. وسرنا فى طرقات ضيقة موحلة والهواء يصفر فى أذنينا .. ويدها فى يدى وخدانا متلاصقان ..

وجعلنا نتبادل الخبز والحلوى والقبل .. وقالت لى فى الطريق ان أباها مات وان أخوتها ماتوا جميعا .. ولم يتبق لها الا أمها المريضة التى تموت ببطء منذ شهور .. وهى تحمل لها الطعام والدواء كل يوم .. كلما جاءها زبون مثل علوان .. واذا لم يكن هناك زبائن .. فانهما تجوعان .. فليس هناك سبيل أخرى للرزق ..

ـ انهم يطردونى ..

قالت هذا فى بساطة وهى تحملق فى الظلام بعينيها الواسعتين .

ـ انهم يطردونى دائما .. اشتغلت خادمه فى عدة منازل .. ولكنهم طردونى .. واشتغلت فى دكان فطردونى أيضا قالوا عنى انى بنت كلب وطردونى ..

وضحكت .. وشددت من قبضتها على يدى ..

ـ انى أحب أمى .. وأحب الحياة من أجل أمى .. وأحبك وأحب الناس الذين لا يطردونى .. هل أنا امرأة فاسدة ..

ـ انت .. انت امرأة طيبة يا اطاطه ..

ـ ان رأسى تدور .. لقد سقانى علوان سبرتو أحمر مثل

كل ليلة ·· انى أحلم ·· غدا سأشترى لأمى الدواء ·· وسأشترى فطورا ·· وسأشترى فاكهة ·· وأجلس فى البيت أعد الطعام ·· مثل البنات الطيبات غدا ·· غدا ·· ما أجمل هذه الكلمة غدا ·· كم تظن عمرى الآن ··

ـ ثلاثون عاما ··

ـ لا ·· لا ·· انى نصف هذا العمر ·· انى فى الخامسة عشرة ··

ـ انت طفلة ··

ـ أنا لم أعرف الطفولة أبدا ·· لقد ولدت امرأة ·· ولدت رجلا ··

وضحكت ··

وكنا قد بلغنا بيتا واطئا مصنوعا من الصفائح ومسقوفا بالصاج ·· فترقفت ورفعت رأسها قليلا ·· وتحاملت على نفسها ودفعت الباب ودخلت وهى تسحبنى من يدى ··

وفى الداخل وعلى ضوء مصباح زيتى مرتجف وجدنا عجوزا على الأرض تتأوه ·· والى جوارها قطة ·· وقلة ماء ··

وانحنت الفتاة ··

ـ أمى ·· أمى ··

ولكن العجوز لم تجب وانما أرسلت فحيحا طويلا ··

ـ أمى ··

وقربت من وجهها المصباح ··

كان وجهها شاحبا وعيناها نصف مفتوحتين ·· وجلدها مشققا ··

ـ أمى ··

وارتجفت الاهداب ·· وانفتح الفم الخالى من الاسنان وخرجت آهة طويلة ·· ودخلت اطاطة تعريد ، ثم عادت بكوز من الماء ·· وأخذت تصبه فى فم العجوز قطرة قطرة ·· ولكنى أحسست بالجسد المريض يبرد تحت يدى شيئا فشيئا حتى تثلج ··

وكانت قطرات الماء تنزلق فى الفم الواسع كأنها تنزلق فى قطعة من الاسفنج ·

وأدركت الحقيقة الرهيبة ·· وتسللت وحدى لأقف عند

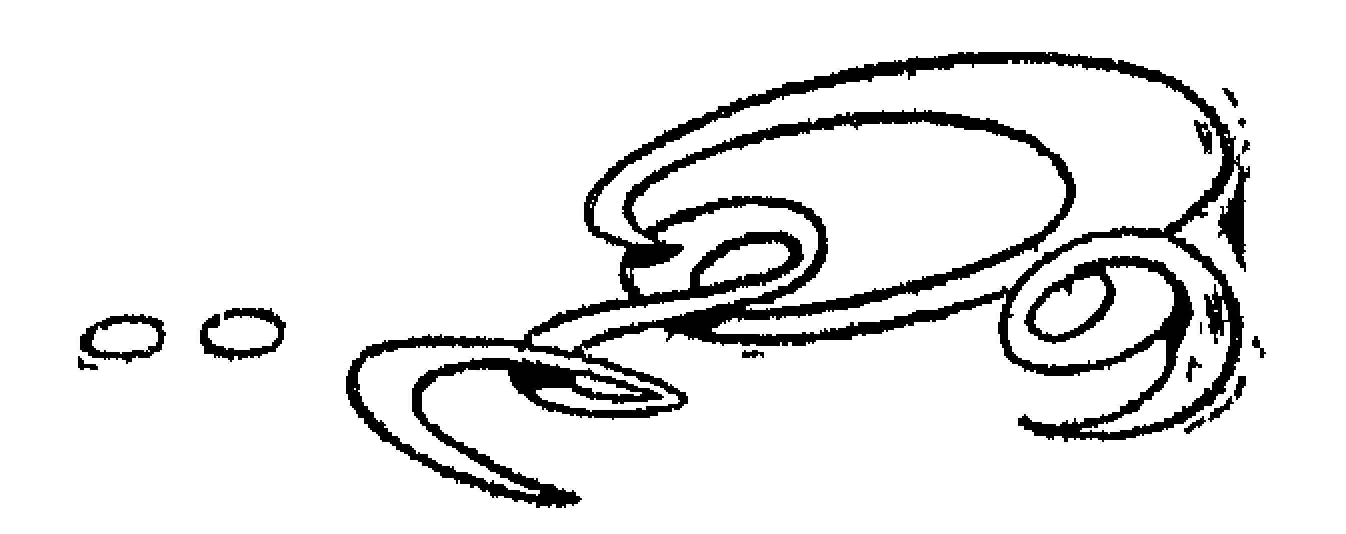
الباب ‥ وأنا أنتظر من لحظة لأخرى ‥ ان تنفجر زوبعة من الصراخ والعويل ‥ ولكن شيئا من هذا لم يحدث ‥ انما عادت الى الفتاة وقد تقلص وجهها ‥ فأصبح عينين ‥ عينين اتسعتا حتى اشبهتا بحيرتين كبيرتين من الرعب ترتجف داخلها حدقتان سوداوتان ‥

كانت تنظر الى ولاترانى ‥ فقد استوت في عينيها كل الأشياء بعد أن ضاع من حياتها الهدف ‥ وتجاوزتنى الى الباب ‥ واختفت فى الزقاق المظلم ‥ وبقيت وحدى مع الجثة والقطة التى تموء ‥

وحينما خرجت أبحث عنها لم أجدها ‥

***

وبعد خمسة عشر عاما ‥ فهمت معنى أن تكون امرأة بلا أم بلا اب بلا رجل ‥ فقد أصبحت أنا أيضا بلا أم بلا أب بلا امرأة ‥ فهمت ذلك الباب الضيق الذى تخرج منه فتاة وحيدة ‥ وتضيع فى عالم الغرباء ‥





« عزيز متى » صراف وزارة المالية الذى عاش نصف عمره خلف قضبان الخزينة الصفراء واحتضن الملايين من الجنيهات واستمع ملايين المرات الى رنين العملة وفتح شباكه كل يوم على أكوام من الآدميين المفلسين ٠٠ شخصية قلما تقابل منها اثنتين في حياتك الطويلة التى تنتقل فيهـــا بين مئات من الوجـــوه والشخصيات ٠٠

رجل صغير الحجم شاحب كورقة مالية بالية تحتل عينـــاه الواسعتان نصف وجهه وتنتشر فى ذقنه شعرات خشنة متباعدة ٠٠ يخيل اليك حينما تقف أمامه أنه لايحس بوجودك واذا به ينتفض فجأة ويرفع أنفه من حزم الأوراق المالية ويحملق فيك بعينيه الواسعتين اللتين يغلب فيهما البياض على السواد فيبدو من خلف القضبان النحاسية كبومة تطل عليك من عشها ويمد يده فى عجلة فيختطف الورقة التى تحملها فى يدك ويشملها بنظرة فاحصة ، ثم يعود فيحملق فيك مستريبا كما لو كنت لصا ثم يعود فينظر الى الورقة ويشملها بنظرة ثانية وثالثـــة ورابعة ، ثم ينتفض ويمد يده فى حركة آلية عصبية الى حزمة الأوراق المالية وينفخ فيها فيفرق أوراقها ويعد منها بأنامله المرتعشة مبلغا من المال يضعه أمامه ثم يمد عنقه وينظر اليك ويعد النقود مرة ومرتين وثلاث ثم يدفعها اليك وهو مازال فى شك من أنه أعطاك نصف الخزينة ٠٠

هذا الصراف العجيب خزينة وساوس ٠٠ ووساوسه لاتقف عند عد الأوراق المالية بل تتعداها الى حياته كلها ٠٠ فهو يشك فى كل شىء ويتوجس من كل شىء ٠٠ فزوجته خائنـــة وبناته فاسقات وأصدقاؤه محتالون والأكل الذى يأكله مسموم والماء الذى يشربه ملوث حتى الطبيعة لايثق بها فهو يخشى البرد في الصيف فيرتدى صدارية ويخشى المطر فى الجو الصحو فيحمل مظلته ويخشى العاصفة فى الجو الراكد الخانق فيغلق نوافذه وهو ساخط على الدنيا وعلى الناس وعلى نفسه بسبب الحيـــاة

واليوم الذى جاء فيه الى الحياة ولكنه لايجرؤ على طلب الموت خوفا من أن يكون وراء الموت عذاب آخر ينتظره وخزينةأخرى يعين عليها صرافا الى الأبد ..

وقد تزوج عزيز متى فى سن متأخر بعد أن تردد فى اختيار زوجته مئات المرات تماما كما يتردد فى قبول عملة ناعمةويرنها مرات ويصغى الى رنينها بكل حواسه خوفا من أن تكونزائفة .. فقد فكر أولا فى الزواج من امرأة غنية ليستعين بغناها على مطالب الحياة ولكنه عاد فرأى أن هذا الغنى سيكون نكبة عليه فنبذ الفكرة من رأسه وفكر فى امرأة مثقفة متعلمة تليق برجل راق حائز على الشهادة الابتدائية مثله ولكنه مالبث أن تردد من جديد ورأى أن مثل هذه الزوجة التى عاشت نصف حياتهـــا خارج البيت فى معاهد العلم وفى الشوارع تحت أعين الرجال لاتؤتمن على شرفه فنبذها من رأسه وفكر فى امرأة فقيرة جاهلة يخضعها لسلطانه ويستبد بها ويسجنها كالشاة بين جـــدران أربعة طيلة حياتها ، ولكنه عاد فخشى على نفسه وعلى أولادهمن جهلهما فنبـذها هى الأخرى ووقف فى مفترق الطرق يقلب عينيه بين الزوجات الثلاث ويختبرهن فى عقله مرة بعد أخرى كما يختبر الأوراق المالية وأخيرا قر رأيه على الجاهلة الفقيرة فتزوج من ابنة خاله البلهاء مريم وهو يهنىء نفسه على نظره البعيد وفكره الثاقب ويحلم بحياة زوجية مثالية يحسده عليها أخوانه المتزوجون .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يحل فيهـــا عزيز متى مشكلاته بذهن الفيلسوف الذى لايقنع بما دون الكمال فقد كان فى مدرسته يسهر الى الثالثة صباحا كل يوم وهو يقرأ ويعيـد قراءة صفحة واحدة ليتمكن من حفظ كلماتها وحروفها وكان فى الامتحان من فرط شكه وتردده ودقته لايجيب الا على ثلاثة أسئلة من خمسة فى الساعات المخصصـــة للاجابة ومع ذلك ينجح دائما لأنه يفوز فى الأسئلة الثلاثة بالدرجات النهائية .. وهذا هو ماحدث له فى زواجه فقد فاز بالدرجات النهائية فى بعض أغراضه بينما حصل على اصفار فى الأخرى .. فاز



بالدرجات النهائية اذ وجد فى زوجته الطاعة والاخلاص والخضوع وحظى بالاصغار حينما افتقد فيها الذكاء والحكمة والاقتصاد وللمرة الأولى رسب فى امتحان الحياة فعاش فى بيته كما يعيش الكافر فى الجحيم ٠٠ ترك لها مرة ماهيته بعد أن ألقى عليها درسا فى التدبير فأنفقتها فى أسبوع واضطرته الى الاستدانة والاستجداء والأرق كل ليلة حتى الصباح فى الهم والكمد وطهت له مرة لحما فاسدا فتسمم واعتل شهرا كاملا فقد فيه نصف وزنه وكاد يموت لولا أن القدر السيىء مد فى أجله لينزل به المزيد من زراياه ٠٠ ونسيت مصوغاتها مرة على المائدة فسرقها الخادم واختفى فلم يعثر له على أثر ومرضت مرة رابعة فاستنفد مرضها طب الأطباء وعقاقير الصيادلة ثم استنفد ماله فكاد ينتحر أو يقتلها لولا أن تدخل القدر مرة أخرى فحفظ عليها حياتها ٠٠ وقد خرج عزيز متى اليوم من ديوانه يجر رجليه ويفكر فى مشاكل لا نهاية لها فزوجته حامل وأخوه مريض وابنه راسب فى علمين والبقال الذى يسكن جواره مات بالطاعون وكل واحد من هذه الحوادث له احتمالاته السيئة فزوجته قد تكون حاملا فى توأمين أو ثلاث وأخوه قد يموت من جراء مرضه وابنه قد يرسب مرة أخرى فى الملحق والطاعون قد ينتقل من جاره اليه عن طريق فأر مصاب وما أكثر الفئران فى البيت المهدم الذى يسكنه وما أكثر البراغيث أيضا ٠٠ ان عليه اذن اذا أراد السلامة أن يشترى قاتلا للحشرات وقاتلا للفئران وان يستأجر طبيبا فاسد الذمة ليجهض زوجته وان يسهر الى جوار ابنه الغبى حتى الصباح ليلقنه الحساب سطرا سطرا وهذا عناء أفضل منه الموت ٠٠

ودخل عزيز الى البيت ووضع حزمة الفجل الكبيرة التى كان يحملها على المائدة ومضى الى زوجته ليسألها عن الطبيب الذى أجهض جارتها بسيمة فلما علم أنه الطبيب اليهودى الذى يقطن عند رأس الحارة سقط قلبه فى قدميه وراح يعد نقوده فى رأسه ويتخيل المساومة المقبلة ويرتجف ثم ذهب الى أخيه ونظر فى وجهه الضامر وعينيه المسبلتين وراح يفكر فى نفقات النعش

وعربة الموتى وعربات المشيعين فكاد يموت من الغم ولم يجدمن ينفس فيه كربه الا ابنه جرجس فأخـــذ يضربه ضربا مبرحا بلا سبب حتى كلت يداه ثم تركه وجلس وحـــده فى الركن. يستمع الى عويله الذى امتزج بنحيب الجيران وصراخهم على الميت الذى مات بالطاعون وخيل اليه فى جلسته أن البراغيث تلسعه فراح ينتفض من حين لآخر ثم هب من كرسيه وهو يشتم ويلعن. ويسب وغادر البيت .. انه لايأتمن هذه المرأة على نفسه فقـد قتلت ولديها أمام عينيه من الاهمال والقذارة .. قتلت عـدلى بالدفتيريا .. بأن أهملت غلى اللبن الذى يشربه وقتلت أخاه الصغير لوقا بأن تركته يأكل السكر الملوث الذى أكل منــــه الذباب وتبرز عليه ..

هذه ليست أما وليست امرأة ولا انسانا .. هذه حيوان ..
وسار عزيز يضرب فى الطرقات على غــير هدى ثم جلس فى مقهى ..

ماذا كان يضير القدر لو أن عزيز متى كان قد خلق انجليزيا أو فرنسيا أو أمريكيا ولم يخلق هكذا شرقيا نكد الطالع .. ماذا كان يضير القدر لو أنه تصدق عليه بلقب ، ومكانة ومرتب كبير وماذا كان يضيره لو أنه تصدق عليه قبل كل شىء بزوجة صالحة .. ولكن لا .. ان هذا لايحدث لعزيز .. انه يحـدث لتوفيق وصبحى وحنا وجبرائيل وعزرائيل ولـكنه لايحدث لمنحوس كعزيز متى ..

وعبس وجه الصراف العتيد وضاقت عيناه وجمدت أساريره ولو انتصب أمامه القدر شخصا فى تلك اللحظة لانقض عليه وأنشب أظافره فى عنقه ولكن القدر لسـوء الحظ لايتجســـد لانسان ..

وأخذ الرجل يفكر فى زملائه وكيف أن عباس أصبح الآن يملك عربة وفيلا وضيعة واسعة .. عباس الذى كان ترتيبه فى آخر الفصل دائما . وفؤاد السمج المهذار كيف أصبح الآن عضوا فى مجلس النواب وحنا القزم الخبيث كيف أصبح هـو الآخر مديرا لشركة السكر وصر على أسنانه من الغيظ وكاديبكى.

٠٠ أين العدل اذن في هذه الحياة ٠٠ ووضع الجرسون أمامه صينية الشاى ، ففتح عينيه وحملق في كوب الماء الذى تتأرجح فيه كتل الثلج واناء اللبن الذى يغلفه التراب ولوى شفتيه مشمئزا وذكر وباء التيفود وضحاياه الكثيرين كل عام وتصور نفسه على فراش الحمى وحوله عشرات الاطباء فدفع بالصينية بعيدا وأحس بالغثيان ونادى على الجرسون ليشتمه ويلعنه ويلقى على سمعه محاضرة في النظافة ويخرج دون أن يدفع شيئا ٠٠

لو كان عزيز متى وزيرا للصحة لأغلق المقاهى وشنق الباعة الجائلين ورش الشوارع بالفنيك والقى الفواكه المعروضة على قارعة الطريق في صناديق القمامة وأعدم الذباب والبعوض والفئران والآدميين الملوثين بالأمراض وقضى على الأوبئة في شهر واحد ولكن أين هو ذلك الحاكم البعيد النظر الذى يختاره وزيرا للصحة ٠٠

وسار عزيز متى يحلم بوزارة الصحة ووزارة العدل ووزارة المعارف ويسب ويلعن ويضرب في شوارع القاهرة وأزقتها على غير هدى ويعود مرة بعد أخرى الى المكان الذى بدأ فيه حتى أدركه التعب وأخذ منه الجوع فتحرك في طريقه الى البيت ٠

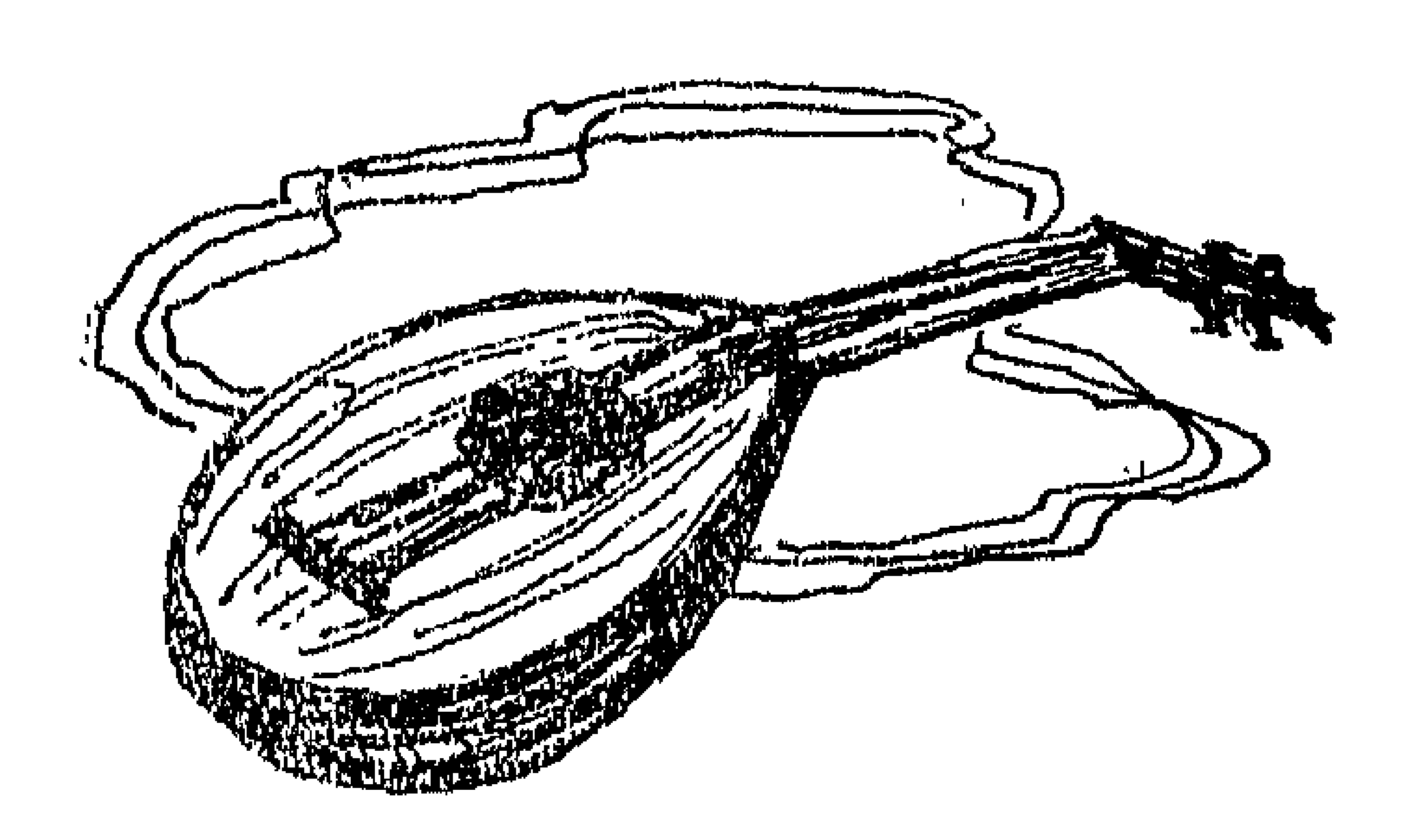
ولكنه ماكاد يدخل البيت حتى فوجىء بهرج ومرج ورأى جمعا من الممرضات والممرضين وموظفى وزارة الصحة ، وأبصر زوجته ممدودة على فراشها تبصق دما وتلهث وقال له الطبيب ان زوجته مريضة بالطاعون الرئوى وان حالتها تستدعى العزل حالا ٠٠ وان عليه أن يستعد للتطعيم ٠٠ وأن هذه أخطر حالات الطاعون فاتسعت حدقتا المسكين واختلجت ركبتاه وسبحت الحجرة من حوله ودارت جدرانها وتذكر لسع البراغيث وأيقن أنه ميت لا محالة وتهالك على الفراش وهو يرتعد من الفزع وارتفعت حرارته وأخذ يهذى ويحلم بأنه يسبح في بحر من البراغيث وما كاد يفتح عينيه ويرى بقعة دم على الوسادة حتى ظن أنه بصقها فجن جنونه وأخذ يضع الترمومتر في فمه ويخرجه منه عشرات المرات قبل أن يعطيه للمريض الواقف الى جواره

وما كاد الممرض ينظر الى الحرارة حتى أشار الى زميـــل يقف بجانبه فخرج مهرولا وغاب بضع ثوان وعاد ومعه محفة وضع فيها الصراف المسكين وحمله الى العربة التى كانت تقف عند البـــاب ..

ولم يعش عزيز متى فى المستشفى أكثر من ساعة مات بعدها بين يدى الطبيب الذى يفحصه وهو يهذى ويلعن البراغيث .. ولكن الطبيب رفض أن يأمر بدفنه ووقف يفكر ثم قال وهو يهز رأسه فى تأكيد : أن هذه ليست حالة طاعون ثم مال على الورقة الصفراء وكتب فيها .. مشرحة .. وسار خلف عربة المشرحة التى حملت الميت وهو يتحدث بنبرات حادة مع ثلاثة من زملائه الأطباء .. ويؤكد بين حين وآخر انها ليست حالة طاعون .

واختفى الأطباء الأربعة فى غرفة التشريح ومرت ســـاعة ثم خرج الطبيب يفرك يديه ويهتف فى فوز وهو ينقل بصره بين زملائه الثلاثة الذين فغروا أفواههم من الدهشة .. ألم أقل لكم .. ألم أقل لكم انها ليست حالة طاعون .. ثم ضـــغط نظارته على أنفه وأردف « انها حالة وهم .. ان الوهم يقتـل كالطاعون تماما » ! ..

صانعو الافراح



الفجر يوشك أن يتنفس ، واللصـــوص وقطاع الطرق ، والشرطة ، والهررة ، والكلاب الضالة تنام ، والقاهرة تحلم . لايتألق في الظلمة الا ثقب واحد من نور .. هناك على سقف بيت قديم .. هناك زمر ، وطبل ، وأكثر من مائة آدمي يفرحون .. كلهم سكارى .. لقد فقدوا عقلهم ، وفقد بعضهم ثيابه ، وفقد البعض الآخر توازنه .. فتمدد على الأرض وهو مازال يرقص ..

وعبده الأعمش يداعب أوتار قانونه ويلهو بالنغم الشرقى المتأود .. فيصفق السكارى ويهتفون ..

أيوه كده ياعبده .. أيوه كده .. تسلم ايدك .. كمان الصبا ده من تانى يا أخويا كمان ..

ويتلفت الأعمش بعينيه المطموستين ويغمز الأوتار في عصبية كأنه يريد أن يقول شيئا ، ثم يبتسم في تعاسة .. ويبقى وجهه جامدا كالحجر .. ثم يميل فجأة على ابنه الجالس على الأرض قائلا :

ـ وله .. اجرى هاتلى سيجارتين كوتاريللى .. افتح شنطة أمك .. تلاقى العلبة هناك .. قوم .. اجرى ..

فيهرول الولد كالجرذ ، وهو يصيح فردوس .. فردوس . ولكن فردوس خلف الباب ..

انهـا تخلع ثيابها قطعة قطعة لتلبس بدلة الرقص .. وهى تضع على شفتيها لطشة عريضة من الأحمر وتمر على حاجبيها بالقلم ، ثم تدخل تتبختر كالبطة ..

ويقذف الطبال طبلته في الهواء ، ثم يلتقطها كالقرد ، ويصفق السكارى .. ويميل أحدهم والزجاجة على فمه ليهمس :

ـ يا ألماظية .. ياكوز عســل .. يا رعاش .. قرب منى قرب .. دنا قتيلك الليلة دى !! ..

وتزغرد صفية التى تمسك بالرق زغرودة طويلة لها ذيل .. ثم تشهق شهقة مثيرة ..

وفردوس مشغولة بالحزام القصب تشده وترخيه فتتدلى بطنها ذات السرة المستديرة ويتماوج نهداها من تحت الشال البمبى ، ويندفع رجل في يده نص فرنك يضعه على جبينها ، وتتوقف الموسيقى :

ــ العريس ٠٠ وأهل العريس ٠٠ وأهل العريس ٠٠ وأهل العريس ٠٠ والفتوات ٠٠ الفتوات ٠٠ واللى طلعوا من السجن ودخلوه تانى ٠٠ اللى ماهمهمش ٠٠ اللى ماهمهمش ٠٠ الرجالة ٠٠ الرجالة بس ٠٠ والعيال لأ ٠٠ العيال لأ ٠٠ العيال لأ ٠٠ العيال لأ ٠٠ والجدعان ٠٠ اللى بيعشقوا الجدعنة ، واللى بيعشقوا النبى ، واللى بيعشقوا المزاج ، واللى بيعشقوا خلقتك وسلام مربع للجدعان ٠٠

ورجل آخر يندفع وفي يده شلن ٠٠ وسلام آخر مربع ٠

وتلقى فردوس بالشال على الأرض وترقص نصف عارية ، وتشتعل الخمور الرديئة فى الرؤوس ، وتشتعل معها الأعصاب التى أكلها السوس ٠٠ سوس الحياة الرتيبة المملة المتشابهة ، ويكرع الرجال الخمر ، وتقدح عيونهم بالشرر ويتصايحون كالثيران :

ــ يا زمبلك ٠٠ يا زمبلك ٠٠ يارقاص ياللى كلك حركة ٠٠ يابو وسط ملبن ٠٠ يافزدق ٠٠ يالوز ٠٠ يا جوز يامكسرات ٠

وتصلصل الصاجات بايقاع معدنى يخطف السمع ٠٠ وتتحول اللوحة الى دخان ورؤوس تتطوح !! ٠٠

ثم يتداعى ذلك الفرح الحيوانى ، وتتداعى معه الرؤوس ٠٠ ويهتف رجل فى الركن :

ــ خمسة يا أخواننا بقه ٠٠ خمسة عاوزين نسمع شوية ليالى سطل من الحاج عباس ٠٠ يا الله ياحاج عباس اتحفنا ٠٠ اتحفنا ٠٠ ودينك ٠٠

وتصيح عشرة أصوات فى وقت واحد اتحفنا ودينك ٠٠

ويعتدل رجل أشيب ، وينظر الى السقف وهو يحتضن عوده ، وينقلب سواد عينيه بياضا ، ثم يمضى يخبط على الأوتار ٠٠



ويفتح فمه لتبدو تلك الأسنان التى سودها التبغ ·· ويغنى يصوت عريض أجش ··

الصبر لو ·· له تقاوى

لأزرعه غيطان · · · ·

ولو طلع شوك · · · ·

أيوه لو طلع شوك ياعمى ·· أعمل ايه قول ·· قول ياحاج والنبى :

ولو طلع شـــوك يا عمى

لأســتناه · · · · · ·

وآخر العمر ·· يا عـم · ·

حالقى الورد فى الغيــطان

يا سلام على الورد فى الغيطان ·· كمان والنبى ·· كمان آخر العمر ألقى الورد فى الغيطان ··

ومرة أخرى ينطلق ذلك الصوت ، الأجش الذى ذهب فيـه منشار الزمن وخلف جراحا تقطر بالدم ··

والصبر ·· لو له تقـاوى

والصبر · · · · · · · ·

وتقاسيم القانون ، وعبده الأعمش ، وهو يتحسس الأوتار ، والناى وهو يزحف كالثعبان الحزين ، والراقصة وقد وضعت رأسها فى كفها ، والطبال وقد تراخى على طبلتـه ، والدخان يتصاعد من الأعقاب ، والعريس الخجول ·· والتعب ، والفجر الذى يتنفس والآمال والشهوات ، والأحلام الرخيصة ··

***

لقد انتهت ليلة من عمر عبده ·· ومضى يتحسس طريقـه الى الباب وقانونه تحت أبطه ، وابنه فى ذراعه ··

ووقفت فردوس خلف الباب تغير ثيابها والى جوارها رجـل مخمور يوشوش ··

ــ بقه والنبى موش حرام ·· الحـلاوة دى تروح بلاش ·· ليه وأنا فين ·· دنا قتيلك يافزدق ·· أطلبى وأنا أبيع نفسى عليكى ·· بس يعنى كلمينى ·· ردى على ·

ـ بس بقه جتك البلا وجعت دماغي وانت زي الدبانة كده
٠٠ يا عبده ٠٠ ياعبده ٠٠ راح فين الراجل ده ٠٠
ـ أنا بدالى عبده ٠٠ أنا أبو عبده وجد عبده ٠٠
ـ روح يا شاطر شوف أختك سارحة فين ٠٠ انتو ايه مالكوش أهالى ٠٠
ـ انتى أهلى يا روحي ٠٠ انتى أمي وأبويا وخالتى وستى ٠
ـ هئ هئ ٠٠ دنت راجل عواطلى صحيح ٠٠ ياصفية ٠٠ والنبى ناولى الراجل ده شبشبين عشان يفوق ٠٠

***

لقد مضت الليلة وتبخرت كما تتبخر الخمر من الرؤوس المصدوعة ٠٠ وانزلقت فردوس فى فستانها الأسود ومن خلفها زوجها بقانونه ، والولد الصغير ٠٠
وأضاءت الشمس أكوام القش والعربة المحطمة ، والحصان الميت الملقى فى الطريق ، ومضت الأشباح الثلاثة تترنح فى بلادة ٠٠ لقد ذاب فيها الفرح فى الحزن ، فى التعب ، فى الجوع فلم يتبق الا وجوه ميتة ترتسم عليها الأحاسيس كما ترتسم الخطوط على الماء ٠٠

***

وفى البيت ألقى عبده بسترته على كرسى وتمدد على الفراش وبصره الى السقف يتأمل شقا طويلا تخرج منه السعالى ، وانكفأ الولد الصغير تحت السرير ليبحث عن سلة الخبز ، وذهبت فردوس لتغتسل ، ثم عادت وقد بان اصفرار وجهها والحلقات الزرق تحت عينيها والنمش المنثور على خدها وبطنها الحامل ، وألقت بنفسها هى الأخرى على الفراش ، ومضت تتأمل السقف، وفى ضميرها شىء يثقله ٠٠ كانت تريد أن تبكى ، ولكنها اكتفت أخيرا بأن تقول فى انكسار :
ـ ربنا يتوب علينا ٠٠
ولما أغرق زوجها فى الصمت ، ولم يجب عادت تقول فى غل :
ـ ربنا يتوب علينا من الشغلة اللى مسرحانا كل ليلة زى

القردانية ·· نرقص للناس ونهز بطننا وبعدين نأخذ بالأقلام آخر الليل ·· اللى يقف لى وراء الباب ، ويقوللى يا فزدق ·· تيجى يا لا يا فزدق ·· يافزدق ·· يافزدق مكتوب علينا الشقا والضنا ، وبرضه نطلع ولاد حرام فى الآخر ·· محدش بيقدر شقانا أبدا · كل الناس بيمسحوا عارهم فينا ··

ـ ايه يا وليه الزن ده ماتنامى ··

ـ كنت عايزاه يروح يشوف أخته سارحه فين ·· العواطلى اللى واقفلى وراء الباب يقوللى يا فزدق ··

ـ ياوليه نامى بلاش زن ، ويعني انتى خضرة الشريفة ماكنتيش سارحة زى الغوازى قبل ما أجوزك ··

ـ كنت سارحه على لقمتى ياعبده مش زى بنـات البيـوت الشرفا اللى بيمسحوا عارهم فينا ·· عندهم لقمة العيش ، وواخدين الخبص غية ·· آه ياناري ·· كنت عايزه أدوب شبشبى عليه · أصله ندل ·· كل الناس أندال ·· عشان سايبينا نعيش العيشة دى ·· نعمل لهم الفرح ويعمل لنا الذل ··

ـ وده فرح ده ياوليه ·· ده دوشة ·· الغلابة اللى زينا شغلتهم الدوشة ·· اسكتى بقه ·· ولا تقلبيش على المواجع سيبينى عايش زى البهيم ··

ـ بهيم برده ·· صحيح لو كنت مفتح ·· ماكنتش قلت كده ··

ـ آه ياعبده ياغلبان ··

قالها وصرخ ، وضرب جبهته بيده وهب جالسا :

ـ آه ياعبده ياغلبان ·· دنا بقول كده عشان مفتح ياوليه ·· مفتح والشوف معذبنى ·· آه يا عبده ·· فين القزازة فين·

ـ قزازة ايه ياراجل اتخمد نام ··

ـ قزازة القطران اللى خدناها من الفرح ·· فين هى خلينى أطين العقل اللى فاضل فى دماغى ··

وقام يعربد ، ثم عاد بزجاجة الخمر ووضعها على فمه ، ومضى

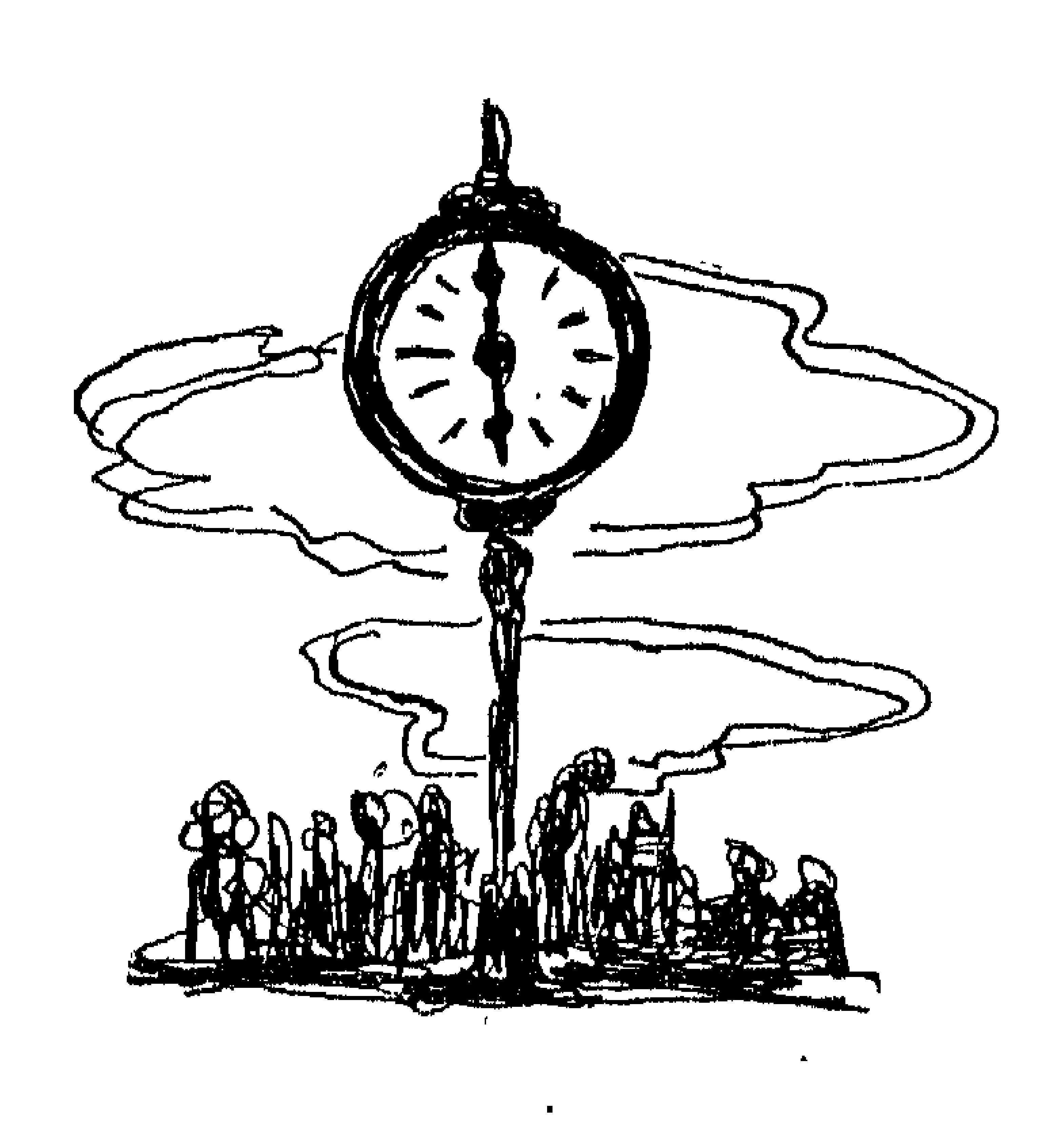
يعب ويكرع حتى ارتوى ، ثم ألقى بنفسه كالجثة وقد فاض وجهه بالعذاب ..

وأمسكت زوجته بالزجاجة ونظرت اليها مليا ، ثم شربت ماتبقى فيها وألقتها بعيدا ، ومضت تنظر فى السقف وفى الشق الذى تخرج منه السعالى ..

وخيم الصمت وبدأ الاثنان يناماان الا من حشرجة تخرج من فم الراقصة بين حين وآخر ..

ـ ربنا يتوب علينا !! ..


حادث



فى الساعة السادسة من مساء يوم بعيــــد .. وأنى لأذكر الساعة واللحظة .. لأنه كان يوما غامضا من تلك الأيام التى يقف فيها مصيرنا على مفترق الطرق بين السعادة والشقاء ..

فى تلك الساعة كنت أجلس وفى يدى كتاب أقرؤه وأضحك من أعماق قلبى الخلى ومن حولى أولادى يتواثبون وامرأتى تحيك لى صداريا وقد انحنت على كرة ملفوفة من الصوف تجذبها فى جذبات آلية متئدة ، والنسيم يداعب شعرها المتهدل ..

ومن النافذة كانت تترامى تحت بصرى ســـماء داكنة .. وأمامى كانت ساعة الحائط تدق وقد استقام عقرباها كحارس الليل الأسود حينما ينتصب مرهفا السمع لدبيب لص تحت جنح الظلام ..

ولا أدرى فى تلك اللحظة ما الذى جعلنى أقف وألقى بالكتاب وأرتدى ثيابى فى أناة ثم أخرج الى عرض الطريق لأضرب متخبطا فى عتمة المساء ..

كنت حينذاك أشرف على رجولتى وقد خلفت ورائى أربعين عاما مضت خفافا كالريح .. من طفولة سعيدة الى صبا ناعم الى شباب عابث الى رجولة خصبة نعمت فيها بطعم البيت والزوجة والأولاد والارث العريض .. ومثل هذه النعمة فى مجتمع فقير تبعث الحسد فى القلوب .. ولكن هذا الحسد لم يكن يزيدنى الا سعادة .. وكل ما كانت تظفر به أوجاع الناس منى هى كلمة « مساكين .. » أقولها وأنا أحكم رباط عنقى أمام المرآة وأتأمل وجهى وقد أشرب بحمرة التفاح وأحلم .. وقد أغمضت عينى الخضراوين نصف اغماضة .

كنت أعتقد اننى من أصفياء الله اختارنى للنعمة ، كما اختار غيرى للشقاء فلا معنى فى نظرى للبـكاء على القلوب الـكسيرة مادام الله قد قسم الأرزاق لحكمة يعلمها .. وليس فى الامكان أبدع مما كان ..

كان ايمانى ترفا واسترخاء .. فاذا ذكرت الله فى قلبى فقد

ذكرته لأزيد مذاق حياتي حلاوة ، وأجعل من هذه الحلاوة حقا مقدسا ، وارادة ، وحكمة ..

وهب النسيم يدغدغ أصداغى وتذكرت اننى خرجت من البيت .. واننى أسير في الطريق لغير غاية .. وزادنى هذا الشعور استغراقا وتراخيا فرحت أنحرف من شارع الى شارع .. حتى وجدت نفسى أتوقف فجأة وقد انتصب أمامى شخص يمد يده بابتسامةعريضةصائحا : أهلا .. أين انت يا رجل .. وما لبث أن تحول السلام الى عناق حار وقبـــلات ، فقد كان الشخص توأما من توائم طفولتى وصباى .. وصديقا قديما قاسمته حياتى سنين لاتنسى .. وأســـعدنا نحن الاثنـــين ان الصدفة هى التى دبرت اللقاء .. وانها هى التى قادت أقدامنا وسددت خطانا وأخرجت كلينا من داره يسعى الى غير غاية ..

وسرنا نتذاكر الماضى .. فهو قد اشتغل بالهندسة وتزوج وأنجب ، وأنا قد اشتغلت بالمحاماة وتزوجت وأنجبتأيضا .. نقول هذا .. ثمنعودفنتصافح ، ثم نعود فنتعانق .. وتشملنا لحظات مشرقة طافحة بالأحاسيس العذبة ..

واذ نسير فى استغراقنا هذا تذهب أقدامناتسعىفىالطرقات حتى يرفع صاحبى نظره فجأة الى بيت أبيض الى اليمين .. قائلا :

ـ هذا حسن .. اننا لسعداء حقا .. فهذا بيت واحد من شلتنا القديمة وانه ليسره كثيرا أن يلقاك ..

وما يلبث أن يسحبنى من يدى الى حيث نصعد بضع درجات ونطرق بابا ، ثم ندخل الى غرفة واسعة بها ثلاثة أشخاص .. ونتصافح ونتعانق أنا ورجل ذو لحية وقد عرفت فيه صديقنا القديم ثم تدور القهوة ، وينبعث الدخان كثيفا من لفافات التبغ محملا بالأحاديث والثرثرة والذكريات ..

ويرى صديقى القديم ذو اللحية أن يكمل متعتنا فيخرج من جيبه علبة النشوق ويدور بها علينا .. وأمد يدى الى النشوق الغريب وأملأ معاطسىعدةمرات .. ثم أعرف بعد فوات الأوان .. أن مانشقته هو الكوكايين ..



ان الكوكايين حينما يسرى فى الدم ويدب فى مسارب المخ فانه يصنع لصاحبه عقلا جديدا ..

وهكذا لم أجد نفسى ألعن وأسب هذه الصحبة السيئة ، وانما وجدت نفسى أبارك هذا المساء السعيد وأحيى اليدالكريمة التى منت على بتجربة فريدة لم آكن أحلم بها .. وفى آليةوجدت يدى تمتد الى علبة النشوق وترفعها الى أنفى حيث تنساب فى دمى جرعا أخرى من السم الناقع ..

وانطلقت عواطفى وأفكارى من عقالها وكأن ضابط السرعة دى آلتى البشرية قد دفع الى اقصى مداه .. فما كان على فمى ابتساما أصبح ضحكا مجلجلا .. وماكان فى عقلى بلبلةأضحى فكرا طليقا .. وماكان فى قلبى خجلا أضحى نهماجارفاوحماسا يأبى الا أن يحتوى بين ذراعيه كل شئ ..

وحينما عدت الى بيتى فى منتصف الليل أسرعت الى امرأتى أقبلها فى لهفة واضمها وقد ذهبت يداى تعربدان فى بدنها الرخص اللدن ..

***

وفى المساء التالى كانت قدماى تسعيان الى بيت صديقى .. وفى المساء الذى بعده وفى كل مساء .. وفى كل يوم .. وكل شهر .. وقد أصبحت ارادتى فى حذائى .. وتحولت الى الحاح يجرى خلف الكوكايين أينما وجده ..

***

ومرت سنوات خمس ..

***

وكان على من يريد أن يعرفنى بعد هذه السنوات أن يدقق النظر ويتفحصنى من الرأس الى القدم ويسألنى .. لينصرف .. ثم يعود من جديد ليتأكد من أن عينيه لم تخوناه .. فالخد الذى كان فى جمرة التفاح قد تحول الى حفرة غائرة صفراءمن الجلد المشدود على العظام .. والعين التى كانت تومض كعيون الأطفال قد انطفأت واختفت فى هالة سوداء يطل منها الموت .. والثياب الأنيقة تحولت الى خرق بالية مرقعة .. والحذاء

تأكل منه النعل وفتح فمه الأجرب لتطل منه قدم عجفاء تكسوها التقرحات والأوحال ..

فاذا تكلم صاحب هذا الهيكل العظمى فليس كمايتكلم الناس وانما هى انصاف كلمات وجمل مبتورة .. يلوكها لسان يرتجف ويخرج ويدخل فى فجوة الفم الذى تساقطت أسنانه .. ثم لايلبث أن يلوذ بالصمت أو ينفجر بالبكاء أو ينفجر فى الضحك .. أو يرتجف من الغضب ملوحا بيده الخشبية فى الهواء ..

كنت أخاف الظلام والوحدة والغرف المغلقة ، كما أخاف الزحام .. والنار واللصوص .. وقد أطلق ساقى للريح اذا رأيت عود ثقاب مشتعلا .. أو أسهر الليالى وأنا أحكم مزاليج الأبواب وأضع خلفها الكراسى ..

فاذا ذهبت أغتسل فانى أغتسل عشر مرات ، وفى آخر كل مرة يخيل الى انى مازلت قذرا تسرح على بدنى الديدان فأغتسل من جديد .. ثم أعود فأغسل الصابونة بصابونة أخرى .. وأغسل الصنبور .. وأطلق الماء يجرى فى البالوعة .. عدة ساعات .. وأنا أخشى أن أمد يدى فيكف قلبى عن الخفقان أو يتوقف صدرى عن التنفس أو تسد أمعائى .. فاذا نمت فانما هى لحظات أغفوها ثم انتفض من فراشى على صوت قطة تموء .. وما ألبث أن أبكى من الشفقة ، وقد خيل الى أن الجنس البشرى يبكى كله ..

وقد أنزوى فى غرفتى أياما لا أغادرها وفى اعتقادى انى أصبت بالجذام فاذا خرجت فأنى أسير منكس الرأس تتخطفنى الهواجس ، وقد أتوقف فجأة لألتقط حجرا من الطريق أضعه فى جيبى لغير ما سبب ثم أهرول من الذعر اذا لمحت شرطيا وكأنى سرقت حجرا كريما ..

فاذا ألقانى حظى التعس الى حيث توجد كأس وزجاجة خمر فأنى أشرب وأشرب بلا توقف حتى أفقد الوعى ..

أما الارث العريض فقد تبدد .. ولم يبق من ممتلكاتى القديمة الا زوجة وخادم أصرت على أن تشاركنا المحنة فسكنت

معنا في بدروم منزل قديم تخدمني وتسهر على راحتي وتبكي كلما رأتني أبكي .. وتبيع ثيابها كلما أعياني السعي في سبيل اللقمة والمخدر .. وكنت أعجب أحيانا لهذا الاخلاص والتفاني ويخيل الى في نوبات خبلي أنها تلازمني لتسرقني وانها تتحين الفرص لتدس لي السم في طعامي فانهال عليها ضربا ثم أطردها .. وما ألبث أن أبكي وقد وجدتها تعود وعلى وجهها ندبات طويلة تقطر بالدم من آثار أظافري ..

كنت أسعى الى دماري في كل خطوة أخطوها .. فاذا رأيت سكينا فكرت في بقر بطني واخراج أحشائي واذا عبرت نهرا فكرت في القاء نفسي بين أمواجه حيث أطفو جثة وارمة منتفخة لا حراك بها ، واذا جاء الشتاء عمدت الى التخفف من ملابسي لأموت بردا واذا أطبق الحر لبست كل ثيابي لأموت اختناقا .. وقد أمتنع عن الأكل أياما حتى أغدو كالشبح .. وقد آكل حتى أكاد أهلك من التخمة ..

وأصبحت عشرتي عبئا ثقيلا فغادرتني زوجتي وخادمي بعد أن تركا لي كل مايملكان من حلي وودعاني بالبكاء واللعنات وأنا واقف على عتبة بأبي فاغر الفم ، واسع الحملاق أحدق في الفراغ .. وقد عجزت حتى عن مد يدي للسلام ..

وفي غرفتي المعتمة في البدروم بدأت أعد أيامي .. أيامي الثقيلة المرة التي كانت تزحف زحفا وكأنها لاتريد أن تنتهي .. فليس لوحدتي رفقاء الا الصداع وأوجاع المفاصل والقيء والرعشة والتشنج والهذيان والحمي والسعال وفي وسط هذا الطوفان من الآلام قد أضحك ضحكة مخيفة ما تلبث أن تنقلب عويلا مفجعا ثم نباحا كنباح الكلب الجريح ..

ولم يكن لي من الجيران الا اثنان .. أحدهما متشرد قضي نصف عمره في السجون والنصف الآخر قضباه يتنقل بين مساكن مختلفة لا يلبث في الواحد منها أكثر من شهر .. وهو أعزب وحيد بلا زوجة وبلا أهل وبلا أصدقاء فهو يقضي سحابة يومه نائما فاذا تيقظ فليذهب الى أقذر مقهى حيث يأكل ويلعب الورق ويسطو على جيوب زملائه ويعود في منتصف الليل

ليطرق بابي ويشتمني ويقول عني انني انسان مشلول ميت وانني أقذر من اللص وأحط من العاهرة ، ثم يلتقط بضع أوراق مالية من شق في سرواله ويضعها أمامي على المائدة ويخرج وهو يبصق على الأرض ..

أما ثاني جيراني فهو يهودي بلغ أرذل العمر ووجهه منقط أبرص وفمه غارق في هالة من التجاعيد والأخاديد وذقنه مدببة بارزة كالحربة .. وهو يعيش خلف خزانة من الرهونات حيث يقرض عملاءه بالربا الفاحش بينما يحياهو في فقر مدقع وصياح دائم وصراخ مع زوجته لأتفه الأسباب ..

ولم يكن لي ملجأ كلما ضاقت يدي سوى اليهودي ارتهن عنده بعض ما أملك من حلي لأشتري الكوكايين .. وكان حينئذ يلقاني وقد زم حاجبيه ورفع النظارة السميكة على أرنبة أنفه .. وراح يصعدني بنظرات فاحصة ثم يتناول السوار أو الخاتم من يدي ليختبره ويزنه ثم يضعه أمامه قائلا في زراية :

ـ عشرة جنيه يا حبيبي !! دى مايسواش تلاته جنيه .. أنا نديك أربعة عشان خاطرك .. غلبان .. عاوز يشم ..

ثم يضعه في الخزانة ويسلمني الجنيهات الأربعة ويبتسم وكأنه خلقني ..

وقد كنت أرقب في بطء ثروتي وهي تدخل خزانة هذا اليهودي وكأنها تنساب الى بالوعة بلا قاع وأقرض أسناني من الحسرة .. كنت أفعل هذا في بداية أيامي ولكن بمضي الزمن ماتت حسراتي وأصبح أعمال الفكر في أي شيء جهدا لا أقدر عليه .. وكل ما تبقى لي هما ساقان تجريان خلف المخدر بأي ثمن .. بددت الحلي قطعة بعد قطعة حتى لم يبق منها شيء يرتهن ، ولم يعد هناك الا أن أعيش بدون كوكايين ، أو أجن ، أو أموت ، أو أرتكب جريمة ..

وذهبت أطرق باب اليهودي .. أملي الأخير الباقي .. وكان جسمي ينتفض مع كل طرقة ، ورحت أحلم وأنا واقفة بالباب .. أحلم بثعابين ضخمة مرقطة ذات جلد أبرص .. وأكداس من الكوكايين ، ووجه أمي البريء .. كوجوه الأطفال وتأوهات خادمي الطيب ، وهي تبكي بين ذراعي .. والرجل

ذو اللحية وهو يقدم لى علبة النشوق ٠٠ والساعة السادسة من مساء ذلك اليوم البعيد ، والعقربان وقد استقاما كاللعنة السوداء ٠٠ وأطفالى . والصداع الذى يدق فى رأسى كالمطارق والرعشة التى لا تبرحنى ٠٠ والحمى ٠٠ والنشال الذى يبصق فى غرفتى ٠٠ وحذائى البالى ٠٠ وزوجتى ٠٠ وأنفى المزكوم ولعابى الذى يسيل بلا انقطاع ٠٠ وزقزقة العصافير فى دفء الربيع ٠٠ والأرض التى كنت أتظلل تحت أغصانها ٠٠ وعويل السواقى ٠٠ ونقنعة الضفادع ٠٠ وخرير الطنابير ٠٠ والخبز الذى لا أجده ٠٠ وقطع الماس والذهب ٠٠ والمخدرات وكل شىء ٠٠ فى طوفان من الصور الشوهاء التى تبرق فى رأسى لتختفى ٠٠ ومن بعدها صور أخرى ٠٠ وكأن عقلى أصبح مهلهلا كالغربال تتساقط محتوياته كسفا ٠٠

وعدت أطرق الباب ٠٠ وسمعت زوجة اليهودى تنادى بصوتها الرفيع الأخنف :

ـ ميخا ٠٠ ميخا ٠٠ شوف مين بيخبط ؟ ٠٠

وسمعت خطوات ميخا وهى تطرق الأرض فى بطء وتراخ ثم صر المزلاج ، وانفتح الباب ، وأطل منه وجه غريب ٠٠ لم يكن وجه ميخا ٠٠ وانما هو وجه حية مرقطة ذات جلد أبرص وقد أسفرت عن نابها وراحت تفح فى شراهة ٠٠ وجحظت عيناى من الرعب ، ورأيت يدى تنقضان على هذا الوجه الغريب وقد تصلبت أصابعى حول عنقه كحلقة من الفولاذ ٠٠

وسقط اليهودى جثة هامدة ٠٠ وزوجته تصرخ ٠٠ وأنا واقف بالباب كالتمثال !! ٠٠

وكان هذا الحادث ٠٠ كاليقظة من حلم مزعج ٠٠ لم أصدق أنى قاتل ٠٠ وأنى أسير فى قيد ، وملقى فى سجن مظلم ٠٠ فما قتلت الا شيئا كالحية الرقطاء ذات وجه أبرص ٠٠ ولعل هذه الحية حلم من أحلام الكوكايين ، ولعل هذا السجن ٠٠ والقضبان ٠٠ والأسفلت أحلام هى الأخرى ٠٠ فقد طال عهدى بالحقائق حتى بت أعتقد أنى سأموت فى أحد أحلامى دون أن أفتح عينى على عالم اليقظة ٠٠

ولكن الحلم طال هذه المرة وطال حتى أصبح كل حياتى ..
فأنا أبيت على الأرض الباردة ، وآكل من الخبز الأسود ،
وأحمل فى رسغى قيدا من حديد .. لا يحمله الا السفاحون
والقتلة ..

والناس من حولى يتحدثون عن القتل ، والاعدام ..
والليومان ..

وبدأت أفيق ..

بدأت أفيق لأجد نفسى فى مستشفى حيث أعالج من العادة
التى استعبدتنى ست سنوات ، ونزلت بى من قمة الثراء الى
هوة الاجرام ..

بدأت أفيق لأعرف أننى قتلت وسرقت .. ثم أعفانى
الادمان ، والمرض ، والجنون من حبل المشنقة ..

وبدأت أفيق لأفتح نافذة واسعة أطل منها على مصيرى ..
وأفهم مقدراتى .. وأقرأ حياتى كلها من كتاب مفتوح ..

من الساعة السادسة من ذلك اليوم البعيد حينما نزلت
أتخبط فى عتمة المساء .. الى حيث جرفتنى عجلة الصدفة
الى مفترق الطرق .. حيث تلتقى الخيوط السود والبيض التى
تؤلف حياتنا ..

نادى القصة

يقدم

امرأة وألحان

بقلم

عبد الحميد جوده السحار

الكتاب الذهبى
العدد الثالث والاربعون
يصدر فى ديسمبر سنة ١٩٥٥ ـ الثمن عشرة قروش
يصدر عن دار « روز اليوسف » للطبع والنشر

الكتاب الذهبى
العدد الثانى والاربعون ـ نوفمبر سنة ١٩٥٥
يصدر عن دار روز اليوسف
١٨ شارع محمد سعيد ـ القاهرة
الاشتراكات
رئيس التحرير المسئول ـ اسماعيل الحبروك
الخارج : ١٨٠ قرشا عن سنة ـ ٩٠ قرشا عن نصف سنة
مصر : ١٢٠ قرشا عن سنة ـ ٦٠ قرشا عن نصف سنة
الاعلانات يتفق عليها مع الادارة
تطلب مجموعة الكتاب الذهبى من دار روز اليوسف
١٨ شارع محمد سعيد تليفونات : ٢٠٨٨٥ ـ ٢٠٨٨٦ ـ ٢٠٨٨٧ ـ ٢٠٨٨٨
جميع الحوالات ترسل باسم « روز اليوسف »
بريد البرلمان

حديث الشهر

الرئيس جمال عبد الناصر ..

باسم الكتاب المصريين ، من مختلف الاتجاهات ، والآراء ، والمذاهب الأدبية .. نعلن اجماعنا على تأييد بيان الرئيس جمال عبد الناصر ، الذى اكد فيه رفض مصر للتدخل الأجنبى فى شئونها الداخلية ، وحرصها على سياستها الاستقلالية ، وحريتها فى التبادل التجارى ، وعلى المشاركة فى حماية السلام ..

ان الضغط الأجنبى الذى بدأ يتخذ أشكالا جنونية ، بشكل خطر على الوطن واستقلاله ، ويهدد حضارتنا ، وثقافتنا ، وكل القيم الفنية والفكرية التى تلهب وجدان بلادنا .. وهذا التدخل يحاول ضرب السياسة الإستقلالية التى انتهجتها حكومة مصر منذ أعلنت رفض الدخول فى أحلاف عسكرية ..

ان الكتاب المصريين الذين يدركون مسئوليتهم فى حماية الوطن ، والفكر والثقافة .. ليقفون اليوم صفا واحدا متماسكا وراء الحكومة المصرية يدافعون عن استقلال الوطن وحريته ومستقبل الثقافة ، وكرامة الفكر .. مكبرين مقاومة الرئيس جمال عبد الناصر لكل محاولات التدخل والضغط الأجنبى ، مؤمنين بأنه سيظل فى موقفه ، واثقين من يقظة شعبنا للمؤامرة ، ومن بسالته فى الدفاع عما أحرزه من انتصارات ، وعن حريات الوطن وثقافته ، وسلامة مستقبله ..

طه حسين ـ أحمد قاسم جودة ـ حلمى سلام ـ احسان عبد القدوس ـ كامل الشناوى ـ جلال الحمامصى ـ نجيب محفوظ ـ سامى داود ـ عبد الرحمن الشرقاوى ـ عبد العزيز صادق ـ عميد الإمام ـ حسن فؤاد ـ عبد المنعم الصباغ ـ موسى صبرى ـ الفريد فرج ـ على أحمد باكثير ـ يوسف السباعى .

طبع بمطابع روز اليوسف
أغسطس سنة ١٩٢٥